" لون الحياة "

-رماديّ-

رواية قصيرة

أوكفيل عبد الحكيم

إهداء

إلى ابنتي التي أتمنّاها ذخرا لهاته الأمّة "آية ملاك"

سيأتي يوم و تقرئين هاته الكلمات، تحملين مسؤولية أن تكوني كما ذكرت و أكثر

إليكِ أنتِ

روح الرّوح، مهجة القلب و جنّة الدّنيا

مصباح الحياة

ابنتي غاليتي التي أتمّت العاميْن

مقدّمة:

صعب أن تجعل الحياة صديقة، و أصعب أن تكون عدوّة، تتّخذ البياض مرّة فلا ترى في الدّنيا غير الأمل، و مرّة ترهبك بسوادها القاتم فلا شيء سوى الألم.

أرواحنا المتقلّبة في هاته الدوّامة لا تهنأ و لا تستقرّ إلاّ باتّباع السّبيل الذي يوصلها لبرّ الأمان، كيف السّبيل إلى هذا السّبيل و قد تغضب منك الحياة في أيّ لحظة و تقهرك بنوازلها بعدما أعطتك الأمان و وعدتك بدوام الطّمأنينة و السّلام ؟

كيف أن لا تخطئ ؟ أن لا تنتقم ؟ أن لا تكذب و لا تخدع و قد خُدعت و خُذلت أصلا قبل المُصاب ؟

كيف لنا أن نتقلّب بين لونين في هاته الحياة و نبقى نحن و لا نتغيّر ؟

من الغالب في الأخير؟ إرادتنا أم هاته الدّنيا العنيدة ؟

من يُسيّر الآخر ؟ من يفوز و من يستسلم ؟

نزال نهايته يعلنها حكم القدر ...

"معجزة"

وهران، الجزائر 2022م

من قال أنّ زمن المعجزات ولّى ؟

من جزم بحتميّة الحزن و الأسى؟

من هذا الذي أقنع نفسه و جرّ الآخرين كما جرّها في سبيل الضّياع ثمّ استسلم لنوازل الحياة المُهلكة ؟

ربّما سوّلت نفسي ذلك ... نعم ...

سقطتُ في وهم المخاوف التي زيّنت لي سواد الدّنيا القادمة ...

مررت بمصائب و أهوال، فأخذت روحي بنفسي و كادت ترميها في غياهب جحيم النّسيان الأبديّ ...

نسيان الإنسانيّة التي فيّ ...

كدت أضيع ... غير أنّها أنقذتني كما أنقذتها، حمتني كما حميتها من هجمات الشكّ و الرّيبة، أقنعتني بالاستمرار، فأقنعتها بقلب صفحات كتاب الآلام ...

كتاب عنوانه في ذاكرتنا لا يغيب، نحذر الوقوع فيما ذكر و وصف، لا نقرؤه أبدا حتّى لا نعود لما وعدنا به الماضي من آهات و دموع، و التي دوّنها في أوراقه بين دفّتي سنوات لا نريدها أن تعود، و إنّما هو في رفّ كتب الحياة نراه لنحذر، لنتفادى ما فيه فيما تبقّى لنا من هاته الحياة ...

اليوم هي زوجتي، نعيش بسعادة كما أراد الله لنا أن نعيش، و معنا ضياء الدّنيا و مهجة الرّوح و القلب: ابننا "آدم"، معجزة الخالق، هديّته و منّته، سبب العودة إلى رحب و سعة هاته الدّنيا.

زوجتي الحبيبة ... "آدم" ابني الذي من رُوحي و دمي ... بهما اليوم أنا ... إنسان.

"اللّعبة القذرة"

الجزائر العاصمة، الجزائر، 2010-2013:

كيف تمرّ الأيّام علينا ؟ كنسخة مكرّرة ؟ كبضعة أحداث مترابطة ترقص في حلقة واحدة لتبلغ منتهاها حيث بدايتها مرارا ؟

نعم هو ذاك بالنّسبة للكثيرين، ملل، ضجر، لا جديد يذكر ...

يقضي "سامي" أيّامه في التّفكير في مستقبله، هو الآن طالب جامعيّ، تنقضي هاته الأيّام الأخيرة بسرعة، أسرع ممّا كانت عليه في بداية السّنة الجامعيّة، انغمس في السّنوات الأربع هاته كليًّا في دراسته لينجح و يستريح أخيرا من هذا العناء الذي لا يكاد يطيقه، عناء الذّهاب و المجيء، عناء السّهر و البحث، عناء العمل في متجر صغير أوجد وقته بشقّ الأنفس و بكثير من التّخطيط ليربح قدرا من المال، يقتني به حاجياته الضّروريّة إضافة إلى بعض الكتب و المراجع، تلك حياة طالب يعيش بعيدا عن عائلته ...

تطمئنّ الأمّ على حال ابنها بمكالمة هاتفيّة كلّ ليلة، غير أنّها لا تطيل خوفا من إزعاجه، شوق الأمّ لولدها كبير، خوفها عليه كما خوف كلّ أم لا تعدّ السّنوات و لا تفرّق بين مراحل الحياة ، أن يكون ابنها طفلا أو شابًّا، حتّى و لو كان كهلا، لا يهمّ، في نظرها يبقى "سامي" الرّضيع الذي طالما سكن حضنها ... لا يكبر أبدا.

أمّا أبوه فعكس أمّه تماما، تنحصر مهمّته –في اعتقاده- على إرسال بعض المبالغ الماليّة التّي لا تسمن و لا تغني من جوع لابنه في حسابه البريديّ، هكذا حتّى لا يُقال أنّه مُهمل، أو مُقصّر في حقّ ولده الوحيد في أصعب فترات حياته.

نعم، "سامي" الابن الوحيد الذي عُقدت عليه آمال و أحلام عائلة بسيطة لامست الفقر، فصار كالمعلّق من عرقوبه لا خيار له إلاّ النّجاح فورا و الحصول على وظيفة ليخرج الجميع من جحيم الحاجة، و إلا هلك الكلّ لسوء الحال، يريدان أن يعود إلى مدينته بشهادته

التي سيفتخران بها أمام الجميع، و يحصل على عمل يدرّ عليه أموالا لا تعدّ، فيكون ذا شأن في مجتمع لا يرحم فقيرا و لا يعترف إلاّ بمن امتلأت جيوبه و فاضت خزائنه.

لكنّ عقل "سامي" الآن مأخوذ، مشدود، ربطه قلبه فمنع عليه سبل الرّشاد في الكلام و التّفكير و قضاء الأمور، بل جعله مشتّتًا مبعثرًا لا يجد طريقًا على كثرة و تشعّبها، و لا يهتدي رأيًا إلاّ خالفه بعد طول تقليب و تدبير، شغلته مُلهمة الجمال كما يدعوها في همسات نفسه المرهفة الضّعيفة، روحه الآن تتعذّب، يكفي فقط أن يذكر اسمها في كهف روحه:

"إلهام".

"إلهام" الشّابة الشّقراء الفاتنة، طالبة مجتهدة مجدّة و محبوبة، ذلك لأنّها لطيفة مع الجميع ليّنة مع الكلّ، يأنس بوجودها البعيد و القريب، هاته الأنثى المكتملة الجمال هي الوردة الممنوعة التّي لم يستطع قطفها أحد حتّى الآن.

يهابون جمالها، يستحيون من عينيها الزّرقاوين الواسعتين و السّاحرتين، يسقطون قتلى في ساحة معركتهم و ابتسامتها الأخّاذة، من يتجرّأ على الحديث معها ؟ من يستطيع الوصول إلى قمّتها ؟

لا أحد.

لكنّ المغفّل لا يفهم، لا يدري ربّما أو لا يريد أن يصدّق أنّها صعبة المنال، يتغاضى عن كلّ ما قيل له، يتجاهل كلّ التّحذيرات و يرمي وصايا الكل في مهملات النّسيان أو التّناسي ...

قرّر أن يبوح لها بسرّه ...

ما يكنّ لها قلبه المُتعب ...

تلك الأحاسيس الجيّاشة المتكالبة التي اختزنها بما فيه الكفاية، يريد التّصريح لها بـ "حبّه" الذّي بلغ عنان السّماء و غطّى البسيطة بأحلام و آمال يرجو تحقيقها، إنّه الوقت المناسب، نعم فنهاية السّنة الجامعيّة فرصة ذهبيّة لا تُعوّض.

اليوم الخميس، الطلاّب في ساحة الجامعة يهنّئون بعضهم البعض على اجتيازهم عقبة أخرى، ما قبل الأخيرة، الاختبارات، لا تزال فقط مناقشة مذكّرات التّخرّج، تقليد لعين يتبع الطّلاب كالكابوس و مرحلة لا بدّ منها لافتكاك تأشيرة الرّحيل من هذا السّجن.

كانت الأجواء حميميّة في يوم صيفيّ حارّ و مشمس، الكلّ فرح يتطلّع إلى غدٍ أفضل، كانت حبيبة قلبه برفقة العديد من الزّملاء و الزّميلات، تتوسّط الحلقة التي أوجدوها بفستانها الأبيض، زاد جمالها يومها، تضاعف، تفجّر و أغرق الكلّ في سرّه المكنون ليبقى مجهولا إلى حين.

شعرها القصير الذهبيّ المتوهّج، وجهها البدريّ الأبيض يزيّنه توأم من الجوهر الأزرق السّماويّ، شفتان صغيرتان كخاتم من نار يلهب النّفس و يهيّج الرّوح فلا سكون و لا أمان بعد هاته الغارة المدمّرة.

صار "سامي" كالمجنون، يحدّث نفسه و تردّ عليه، يتحيّن فرصة الكلام معها دون أن يقتنصها، بعد تردّد كبير و ذهاب و إياب قرّر أخيرا أن يكلّمها مهما كان، لن يخسر شيئا على كلّ حال، فمن لم يجرّب حظّه معها ذهبت فرصته لآخر، و قد أتى دوره فلا سبيل للاستسلام دون محاولة.

مع الخطوة الأولى أمسكه صديقه "زكي" من كتفه و جذبه إليه، استدار و نظر إليه مستفسرا:

" ماذا تريد ؟".

إلى أين ؟".

" و ما شأنك ؟".

" أو تظنّ أنّي لا أعلم ؟ تعجبك تلك الـ ... "إلهام" أليس كذلك ؟".

يغضب "سامي" و يظهر ذلك عليه جليّا:

" و أين المشكل ؟".

يغلق "زكي" عينيه و ينزع يده من كتف صديقه ببطء، ينظر فيه و يقول:

" نصيحة من صديق سنوات، يحبّ لك الخير يا "سامي"، دعك منها فهي لا تستحقّ".

ينتفض لما قاله، ينظر فيه نظرةً حادّة ثمّ:

" و لمَ لا تستحقّ ؟".

ينتظر جوابًا منه، هو يعلم أنّ صديقه "زكيّ" إنسان رصين و حادّ الذّكاء، لا يتفوّه بكلمة إلاّ عن منطق و حقيقة بالرّغم من أنّه يصغره سنًّا، مشهود له بالحكمة و التروّي، لذا و بالرّغم من انزعاجه، آثر "سامي" السّماع لما سيقوله:

" لا تنخدع يا صديقي، فكلّ ما يُروّج لها محض أكاذيب".

ينظر فيه لحظات ثمّ ينفجر ضاحكا:

" ماذا قلت ؟ أكاذيب ؟ ماذا بك ؟ الكلّ يعرف "إلهام"، هي من أفضل الطلاّب خُلقا و اجتهادا، كما أنّها من عائلة مرموقة، ثريّة و معروفة من المحال أن تكون غير الذي هي عليه، أتظنّها كاذبة ؟ مخادعة ؟ مستحيل أن تجازف بسمعتها و سمعة عائلتها في أيّ ظرف و في أيّ حال".

يبقى "زكي" صامتا و يسمع ...

" كلانا درس معها طيلة أربع سنوات، فهل للحظة رأيت منها منكرًا ؟".

"لقد رأيتَ ما رآه الجميع، أو بالأحرى ما أرادت أن تروه منها، و ما خفي أعظم و أجلّ".

يردّ "سامي" على "زكيّ" بلهجة شديدة:

" إن لم يكن لك دليل واضح و ظاهر على ما تقول فاصمت و لا تعد لهذا الأمر مجدّدا، ما قلته بهتان لو تعلم ...".

يردّ "زكي":

" لا أودّ الخوض في هذا الحديث، و لا أريد أن أكشف ما عزمت ستره، هكذا لكي لا تقول لي أنّي نازعتك عليها بدافع الغيرة، لن أفصح عما أعرفه عنها خوفًا من الفضائح و المشاكل، غير أنّي أنصحك بالابتعاد عنها، و إن شئت القربى فاحذر، على كلّ حال سأتركك تكتشفها بنفسك حتّى لا تلومني".

" كلاّ أفصح ... هيا قل لي ماذا تعرف ؟" قالها "سامي" مستهترا.

" تعرف قصّة الذّئب و ذات القبّعة الحمراء بالطّبع ؟".

" كيف ؟ ما دخل هذا في موضوعنا ؟".

" تذكّرها جيّدا ... تلك القصّة".

شعور غريب يتغلّب على "سامي" فجأة ليلفّه من الدّاخل حتّى لا يترك منفذا للطّمأنينة و السّلام، مزيج من خوف و قلق، إحساس رهيب ...

و هو ذاهب:

" الثّقة الزّائدة فيما تراه و تحسّ به تعميك عن الحقيقة المخفيّة وراء ستار الإعجاب الكاذب، استيقظ قبل أن تندم ...".

ذهب و ترك "سامي" لحال سبيله ...

بقي واقفًا ينظر فيه إلى أن اختفى ظلّه، هنيهة ثمّ عاد إلى رشده، و كأنّه غاب عن الواقع لثوانٍ:

" لا مستحيل، غير ممكن، لابدّ و أنّها الغيرة، هو لم يستطع تطويعها و فشل، يريد أن نكون في الفشل سواء حتّى يستريح، لكن لا، لن أتركها لغيري ...".

ضرب ما سمعه من صديقه عرض الحائط و عزم على خلاف ما أوصاه به، أخذ نفسًا و تشجّع، تقدّم بخُطى متردّدة نحوها و جسده يرتعش، وصل إلى تلك الحلقة فاستحيا اختراقها و بقي حيث أوصلته رجلاه بصعوبة، رفع صوته مُحيّيًا:

" أ ... أهـ ... أهلا".

استدار الجميع و صمتوا، كذلك فعلت "إلهام"، نظرت فيه، وجهًا لوجه، و للحظة بقيت كذلك تتمعّن فيه وسط دهشة الحاضرين من جرأة هذا الشّاب، اقتربت منه قليلا فزادت ضربات قلبه، صار بمقدوره استنشاق عطرها من قربها منه، بل تحسّس أنفاسها الحارّة بشفتيه المرتعشتين، قالت مبتسمة:

" نعم ؟ ماذا تريد ؟".

ردّ و قد جفّ ريقه:

" في الواقع ... أريد التكلّم معك في أمر خاصّ".

فتحت الشّابة عينيها و على وجهها دهشة لا تحتاج لتفسير...

" حقّا ؟".

طأطأ "سامي" رأسه و احمرّ خجلا، استحيى من قول المزيد، فصمت و انتظر ...

" سأعود بعد لحظة، أستسمحكم عذرا".

لم يصدّق ما سمعه توًّا، كاد يطير فرحًا، تلك "الفرصة"، بغية الجميع، تحصّل عليها أخيرا و دون واسطة أيضا، و كأنّه يحلم، يرى في وجهها بحذر و إذا بها تكلّمه مع ابتسامة سابقة:

" لم لا نتمشّى قليلا ما رأيك ؟".

زاد حماسه و تشجّع أكثر:

" و لم لا ؟ موافق".

قطعا مسافة لا بأس بها في سبل الجامعة التي تعجّ بالطلاّب، و لا زال "سامي" غير قادر على النّظر بثبات في وجه "إلهام"، بينما هي ترمقه بنظرات ممعنة بين الفينة و الأخرى، تضحك بعدها ضحكات خفيفة، زاد توتّره و بدا عليه ذلك، حينها بادرته بالكلام فقالت:

" إذن ؟ ما هو الأمر الشّخصيّ الذي أردت أن تحدّثني فيه ؟".

" في الواقع ... في الحقيقة ... أردت أن ... كيف أشرح لك".

اختلطت الأمور عليه تماما، فما استطاع الشدّ و لا المدّ، لم يتمكّن من ضبط نفسه المشتّتة و لا جسده المرتعش، في لحظة حاسمة كهاته لم يتمكّن من مفاتحتها الموضوع ...

" يبدو أنّ الأمر جادّ، و أراك مرتبكًا لا تستطيع الإفصاح، ربّما حضوري هو الذي ...".

" لا لا أبدا، فقط الموضوع كما قلت حسّاس".

تصمت للحظة و ترى فيه، مطوّلا هاته المرّة:

" حسّاس ؟؟؟".

لم يجبها، بقي متردّدا خائفا من القيام بالخطوة الموالية، غير أنّها كسرت ذاك الجدار و أتت بالخلاص:

" حسنًا، لم لا نضرب لذلك موعدًا خارج الجامعة ؟ فعلى ما يبدو أنّ المكان و الزّمان غير مناسبين للتكلّم براحة و أمام أنظار الجميع، ألست من رأيي ؟".

سُرّ سرورا عظيما، رفع رأسه سريعا بعد أن غاص عميقا في ظلمات التّيه:

" ما رأيُك بيوم السّبت في الرّابعة مساءً في الكافيتيريا قبالة الجامعة ؟ لن يكون هناك طلاّب كثر يرتادونها، فالسّبت يوم عطلة".

نظرت فيه فضحكت:

" كانت نيّتك إذن ؟".

" إن أردنا القول" ردّ خجِلا من انكشاف أمره.

" حسنًا، كما تريد، يوم السّبت على الرّابعة مساءً، سيّد ؟".

" "سامي" ".

" حسنا "سامي" يوم السّبت إذن ... دون أن أذكّرك باسمي فأنت بالتّأكيد تعرفه".

" شهرتك سبقتك ".

تضحك، تلوّح له مبتعدة تاركةً له ابتسامة ساحرة الجمال، أحسّ بفرحة لم يذق طعمها منذ مدّة، عادت لتنضمّ إلى زملائها و تدخل من جديد تلك الحلقة الغريبة.

أدخلته أحلام اليقظة، فاستسلم و أبى الخروج من تلك الأحلام ...

لم ينم ليلتها و هو يفكّر فيها، تملّكته تماما، اجتاحته و استعمرت أراضي نفسه بالكامل، لم تترك له زاوية في روحه إلاّ احتوتها، و لا خيالا إلاّ و مثّلت فيه، سجن نفسه بيده طواعية في سبيل اقتناصها، فاقتنصته، لم يعد قادرا على المقاومة...

مرّ يوم الجمعة بطيئا، كيف لا و قد كان يعدّ ساعاته بل دقائقه، أمّا صبيحة يوم السّبت فكانت أشدّ من الجمعة، ذلك لأنّه كان يعدّ فيها الثّواني ...

ليقتل الوقت قرّر مكالمة صديقه "زكيّ"، صديقه الوحيد على كلّ حال، رغم الخلاف الذي كان بينهما الخميس المنقضي إلاّ أنّه ليس حقودًا، ليس من النّوع الذي يذكّرك مرارا بخلافات يودّ الكلّ تجاوزها ...

" إذن ستلاقيها اليوم ؟ في موعد ... أنتما الاثنان فقط".

" و هو كذلك، بكلّ فخر يا صديقي حقّقت ما عجز عنه العشرات، تخيّل أنّها هي من دعتني و أنا وافقت".

نبرة الفخر و الاعتزاز بالنّفس واضحة من صوته الواثق.

" ألم تسأل نفسك لم دعتك و قبلت ملاقاتك بهاته السّرعة ؟ ألم تسألك عن أمر آخر ؟".

" المهمّ أنّني سألاقيها".

" فقط ؟".

" هذا الذي بحثت عنه".

" لقد اقتربت من بيت الجدّة يا صاحبي".

يستغرب "سامي" و يستفسر:

" بيت الجدّة ؟ عن أيّ جدّة تتكلّم ؟".

" قصّة الذّئب و ذات القبّعة الحمراء، ذكرتها لك من قبل".

" و أين هي العلاقة بموضوعنا بحقّ الإله ؟".

" ستدرك ذلك فيما بعد إن استمررت في عنادك".

استشاط "سامي" غضبًا و لم يحتمل:

" اللّعنة، كان خطئي أن كلّمتك، سأتركك الآن".

" إنّه فخّ يا "سامي" لا تنخدع بمظهرها البريء فقد قامت بـ ...".

" لا أريد سماعك، سلام".

قطع الاتصال و رمى المحمول، لازال يظنّ أنّ صديقه يغار منه لأنّه لم يحقّ ما حقّقه، لم يفكّر في الأمر كثيرا على كلّ حال، فقد تغذّى و تحضّر، ارتدى لباسا كلاسيكيًّا أسودًا أنيقا، مع حذاء برّاق من نفس اللّون، تعطّر، و في الثّالثة و نصف كان ينتظر قدوم حبيبته في الكافيتيريا، كلّ شيء جميلا هنا، الدّيكور، الأنوار، الطّاولات المزيّنة و حتّى الكراسي المنقوشة، يخيّل إليك أنّك في أحد قاعات حفلات في أفخم القصور الأوروبيّة، لا بأس فقد جمع مبلغًا محترمًا من قبل و سيفدي به فقط لأجل هذا اليوم، المهمّ أن يكون مرتاحا و "إلهام" و أن تصير الأمور كما هو مُخطّط لها، تبدو السّعادة على مُحيّا الحاضرين هنا، سيكون يومًا رائعًا لا يُنسى بالتّأكيد.

يمرّ الوقت قطرة قطرة، الدّقائق تدفع الدّقائق بصعوبة و مشقّة، إنّها الرّابعة و نصف و إلى الآن لم تأتِ "إلهام" بعد، بدأ القلق ينتاب "سامي"، راودته شكوك و احتمالات كثيرة،

الرّابعة و خمسون دقيقة، لم تصل بعد، لم يأخذ حتّى رقم هاتفها ليطمئنّ عليها، ماذا يفعل الآن ؟

أطالت ...

بالفعل أطالت ...

لكن لحظة ...

هاهي ... هاهي آتية ...

نعم هي ... هي ...

وصلت "إلهام" في ثوب أحمر طويل يرسم انحناءات جسدها الفاتن، دون تزيين تبقى فائقة الجمال، و هي تقترب من طاولة "سامي" تبتسم و تعتذر:

" أهلا "سامي"، عذرا على التّأخير، شغلني أمر مهمّ في آخر لحظة".

انبهر فلم يستطع الردّ في الحين، أعجزه جمالها و أبكمه قوامها، بصعوبة و هو مبهور:

" لا لا ... –يضحك مُفتعلا- خذي راحتك، لا بأس، المهمّ أنّك هنا".

" لا بالفعل متأسّفة".

" لا تقلقي بهذا الشّأن".

إنّه السّحر بعينه يتكلّم و يضحك، جمال الله في خلقه يتفجّر، إنّها الفتنة المهلكة، الأنثى بكلّ معانيها و أسرارها، تلك البشرة البيضاء المضيئة على ذاك السّتار الأحمر الذي يلفّ جسدًا بهذا التّناسق العجيب، تلك النّظرة البريئة القاتلة من يقاومها ؟ تلك العيون الزرقاء و ذاك الشّعر المتموّج نورا و حرارة، و كأنّها الشّمس أشرقت لتحيي الموتى من قبور سهوهم عن هذا الملاك الذي لم و لن يستطيعوا بلوغه.

بعد لحظات و حديث قصير تبادلاه على استحياء، ساد صمت رهيب، تلك لحظة الحقيقة:

" إذن ما هو الموضوع الذي أردت الحديث فيه معي ؟".

يجفّ ريق الشّاب مرّة أخرى، تتسارع نبضات قلبه أيضا، لكن في هاته اللّحظة بالذّات لا مجال للمراوغة، أصلا يريد قولها، قول تلك الكلمة التي تزن ثقل الجبال الرّاسيات على صدره، غير أنّ "إلهام" تدري و لا تفصح، تعلم ما يدور بخاطره، ليست مغفّلة، كما كلّ فتاة هي تدري لماذا يريد ملاقاتها و الحديث معها، فقط هي تحاول تشجيعه، تحاول سماعها منه، تلك الكلمة التي تزن ثقل الجبال ...

تنظر إليه مطوّلا و تبتسم:

" أتريد أن تكون ... ؟؟؟ ".
بسرعة صّب بصره نحوها، فالتقت عيناهما في لحظة سحريّة عجيبة، وضعت يدها على صدرها تتحسّس نبضات قلبها، فتحت عيناها منتظرة الآتي، حينها تشجّع "سامي" و رمى بنفسه في الدّقيقة الموالية دون كثير تفكير قائلا:

" أتقبلين أن ... أن تكوني ... رفيقة عمري ؟ أتقبلين الزّواج بي ؟".

تتصلّب في مكانها من الصّدمة، لم تكن تنتظر منه أن يعرض عليها الزّواج بهاته السّرعة و أن يتجاوز كلّ مراحل التّعارف.

" لكن ... لكن تخرّجنا حديثا، لم نحض بعد أنت لا تملك الإمكانيّات لتبني أسرة أأنا على خطأ ؟ لا أقصد الإهانة لكن ... لكن بالفعل فاجأتني، لم أكن أنتظر أن ...".

قاطعها:

" لست من النّوع الذي يحبّذ التّعارف و الخرجات المتتالية، رأيتك فسكنتِ قلبي و عقلي، من بين المئات، أو حتّى آلاف الفتيات أنت من دقّ لها قلبي معلنا حبّه الصّارخ، ألا يكفي هذا لأن أدرك أنّك فتاة أحلامي و بُغيتي الأسمى؟ ألا يكفي هذا التّصريح الصّادق لأن أتيقّن من أنّك امرأة حياتي التي أريد أن أكمل معها أيّامي الباقية ؟".

تبقى مشدوهة صامتة.

" بيدي الشّهادة الآن، سأبحث عن عمل و أجمع المال حتّى أتمكّن من توفير سكن و لو بسيط أكتريه، سأفعل المستحيل لأوفّر ما يجب للزّواج بك، لست مجرّد نزوة عابرة، لست متعة زائلة، أخلاقك، تربيتك، تعاملك مع الجميع أثّر فيّ بعمق، وقعت في حبّ نفسك الطّاهرة قبل أن أُفتن بجمالك العذريّ".

أفرغ كلّ ما في جعبته مرّة واحدة، أطال الكبت فكانت النّتيجة أن تدفّقت مشاعره فيّاضةً في لحظة رآها الأنسب، و كانت بالفعل لحظة فارقة ...

لازالت الفتاة متصلّبة في مكانها، كالصّنم لا تتحرّك ...

" ماذا قلت ؟ أتقبلين ؟".

انتظر إجابتها، فكانت سريعة واضحة:

" ما أغباك يا هذا" ثمّ تضحك ضحكًا عاليًا سمعه جميع من كان في الكافيتيريا.

لم يصدّق "سامي" ما سمعه للتّو، قشعريرة سارت في جميع جسده:

" ماذا ؟ ماذا قلت للتّو ؟".

بدت على وجه الفاتنة ملامح لم يعهدها من عرفوها و صادقوها، صارت إنسانًا آخر لا يشبه تماما "إلهام" البريئة، نظرة حادّة حدّ السّيف تتبعها نبرة صوت قويّة:

" ماذا ظننت ؟ أتزوّج من طالب تخرّج لتوّه من الجامعة ؟ ما بك ؟ أجُننت ؟".

الآن هو من تصلّب في مكانه مشدوها فاتحًا عينيه و فمه ...

" أعرفك جيّدا يا من تجرّأ و كلّمني، أنت "سامي مأمون" كنت تدرس معنا في الحصص التّطبيقيّة، مجتهد و اجتماعيّ إلى أبعد الحدود، بإمكانك أن تكون مرحًا مرّة على مرّة، تدرس و تعمل في نفس الوقت، بالذّات تعمل في متجر حقير، تراقبني منذ قرابة العامين، مُعجب بي لحدّ الهوس، دعني أقُل لك شيئا: لست من حثالة مستواك".

كالصّاعقة تنزل تلك الكلمات على روح الشّاب المنهارة، لتدمّر ما بقي منها قائما، أمعقول أن تكون هذه "إلهام" التي عرفها ؟

ينظر إليها و قد خانته الكلمات، أصلا ماذا يقول ؟ و ماذا سيفعل ؟

" نحن من عائلة ثريّة معروفة، لا نقبل سوى من هم في مستوانا الرّاقي أسمعت ؟ أنت على بعد ألف سنة من الوصول إلى ظفر أصبعي الأصغر، ما أملكه الآن يعادل حياتك الرّخيصة و حياة آبائك و أجدادك، أشتريك أنت و أهلك و كلّ من تعرفهم، ما تملكونه جميعا آخذه لو أردت، كيف تجرّأت و طلبت منّي القرب و أنت الفقير الحقير ؟".

يردّ عليها بغضب:

" لماذا قبلتِ المجيء إذن ؟ لِمَ لم ترفضي من الأوّل إن كان الأمر كذلك ؟ لماذا ؟ ".

بكلّ مكر:

" لكي تتجرّع طعم الذلّ أمامي".

تضحك حينها ثمّ تطلب من فتاتين كانتا بالقرب من طاولتهما القدوم، إحداهما كانت تسجّل كلّ ما حدث بينهما بهاتفها النقّال...

"أسجّلت كلّ شيء ؟".

" كما طلبتِ نعم".

" سأحتفظ بالفيديو كذكرى جميلة، ربّما أشاركه على "اليوتيوب" بإخفاء وجهي و تغيير صوتي و كشفك أنت الذي وقعت في الفخّ كالأبله، عادة لا أهتمّ بحمقى الجامعة حتّى لا يُفتضح أمري، لكنّك الأوّل بينهم، قبلك تمكّن أحدهم من الإفلات من شباكي رغم أنّي راودته عن نفسه، كان أذكى منك و أشدّ انتباها، صاحبك "زكي" ".

صدمة تلو الأخرى، كالصّواعق تنزل عليه هاته الحقائق التّي يصعب بالفعل تصديقها، حقائق تذلّه و تمرّغ في الأرض كرامته ...

عيناه شاخصتان، فمه مفتوح، في عالم آخر هو الآن، عالم الظّلمات، عالم التّيه ...

" لم يكن الأمر سوى "لعبة"، -تضحك- خذ الأمر كما هو و لا تفكّر فيه كثيرا بعد الآن، كنت الطّرف الخاسر و انتهى، نعم انتهى أمرك أيّتها الضّحيّة واحد وعشرون".

نهضت و خرجت برفقة صديقتيها مقهقهة فرحة، كنّ يضحكن و يسخرن من المسكين الذي لم يعد لصوابه لغاية اللّحظة، بوجهه الشّاحب و نظرته الضّائعة لا يدري بعد أين هو، أو بالأحرى هو يدري، الآن يدري بعد أن استفاق من غيبوبته المحزنة، في عالم الضّياع هو، في عالم الكذب و الخداع، في دنيا لا مكان للصّادق فيها، لا مكان فيها للمُحبّ بين اللّئام ...

سخرت منه، جعلته لعبة بين يديها، إنّها الشّيطان بعينه ...

بعد عودته إلى المنزل بدا عليه التغيّر، تفطّنت له أمّه ثمّ أبوه، غير أنّه في كلّ مرّة ينكر و يقول:

" لا تقلقا، ربّما هو التّفكير في مستقبلي بعد أخذ الشّهادة".

طبعًا كذبة يخفي بها آلامه و أحزانه المكشوفة، بقي أيّامًا ليست بالقليلة دون أكل، يشرب الماء فقط حتّى فقد من وزنه الكثير، دون نوم حتّى انتفخت عيناه و اسودّتا، "سامي" اليوم ليست له علاقة بـ"سامي" الأمس، الشّاب المفعم بالنّشاط و الحيويّة بات لظلّه رفيقا و حبيبا، يقضي معظم وقته في غرفته المظلمة جالسا وحده، لا يستطيع نسيان ما حصل له منذ أسبوعين.

اتّصل به صديقه "زكيّ" عديد المرّات دون ردّ، و في يوم من الأيّام قرّر مكالمته و الحديث معه علّ الكلام يخفّف الآلام، و ينزع ما في النّفس ما أرهقها من ذلّ و هوان.

" ألو ؟ كيف حالك صديقي ؟".

" "سامي"؟ كيف حالك يا أخي ؟ غيّرت رقم هاتفك ؟ لا بأس لا يهمّ، ما هذا الغياب أين أنت ؟ لمَ لم تردّ على مكالماتي ؟ أأنت بخير ؟".

أمطره بوابل من الأسئلة على غير عادة "زكيّ"، غير أنّه خشي من أن يقطع المكالمة و يقفل الخطّ فلا يُسمع له خبر بعدها، فاستغلّ الفرصة و سأله عن كلّ شيء مرّة واحدة، يردذ عليه بصوت هادئ متثاقل:

"قصّة طويلة".

" ما بها نبرة صوتك ؟ أأنت مريض؟".

" لست مريضا كلاّ، و إنّما ذات القبّعة الحمراء ...".

" ذات القبّعة الحمراء ؟".

" ابتلعها الذّئب".

فهم "زكي" المقصود و سأل صديقه المقهور:

" أيمكنني الحضور الآن ؟ أودّ التكلّم معك في هذا الموضوع".

" و هل بقي كلام بعد الذي حصل ؟".

يطول الصّمت من الجهتين، يستشفّ "زكي" وقع الصّدمة على صديقه، ثمّ:

" أنا في البيت، تعرف العنوان إن شئت المجيء".

" سآتي حالا".

بعد عشرين دقيقة كان "الوفيّ" عنده، صعد برفقته إلى غرفته الصّغيرة و هو مندهش، لم ير "سامي" من قبل في هاته الحالة المزرية، هزيل و مكتئب، متثاقل الخطى بطيء الحركات، يجرّ رجليه جرّا، لم يُشف بعد من الصّدمة.

يجلس "سامي" على سريره في حين يجلس قبالته "زكي" على كرسيّ مكتبه:

" إذن ؟".

" ما قلته صواب، حاولت تحذيري لكن لم أشأ الاستماع لنصائحك".

يأسف "زكي" لحاله ...

" تأخّرت أنا كذلك، ظننتها تغيّرت، أعطيتها فرصة فلم أرد فضحها أوّل الأمر، قلت في نفسي ربّما أقلعت عن التّلاعب بالشّباب كما فعلت بك، كان عليّ إجبارك على سماع الحقيقة في لقائنا ذاك، حاولت تدارك الأمر حينما كلّمتني عبر الهاتف، لكن ...".

" قاطعتك نعم، استمررت في التشبّث بوهم".

" هي تستمتع بإذلال الآخرين، تتوق لتحطيم آمال الشبّان، أظنّها مختلّة نفسيًّا، فالإنسان الطّبيعيّ مهما كان فيه من غلّ و حقد سواء بسبب أو دونه، لا أظنّه يـ ...".

يقاطعه:

" كنت الضحيّة الواحد و عشرون ... تخيّل ... واحد و عشرون أحمقًا أطاحت به".

لا يردّ صاحبه بكلمة، غير أنّه يضيف:

" كان درسا قاسيًا ... و انتهى".

يضحك "اليائس" ضحكات متقطّعة لم يفهم "زكي" معناها:

" كنتَ و لا زلتَ أذكى منّي أعترف بذلك، لكن صدّقني، لن تمرّ الحكاية هذه دون نهاية ترضيني".

بسود صمت رهيب، مخيف، أشبه بالهدوء قبل العاصفة، ما الذي قصده من كلامه ؟

" لا تقل لي أنّك تفكّر في الانتقام".

ينتظر إجابته بلهف و خوف شديدين ... غير أنّ "سامي" لا يردّ، اكتفى بالابتسام فقط.

" إيّاك و فعلها، بعيد أنت عنها، أخذت شهادتك و ستبدأ عن قريب حياةً جديدة تنسى فيها مثل هاته المخلوقات التي لا تستحقّ حتّى عناء التّفكير فيها، يكفيك أنّك أهلكت نفسك و أتعبت معك أهلك، دعك منها، انسها".

يضحك "سامي" مطوّلا، ينهض من سريره و يضع يده على كتف صديقه مبتسما:

" لا تقلق، فلست الذي كنت".

اندهش من هدوئه غير المعهود، أكان تأثير التّجربة ؟ أم استيقاظ بعد غفوة ؟

لكن ماذا لو ...

ماذا لو كان أمرًا آخر ؟

ماذا لو عنى بكلامه غير الذي فهمه "زكي" ؟

" لن تمرّ الحكاية هذه دون نهاية ترضيني"، " لا تقلق، فلست الذي كنت".

أقصد أنّي تغيّرت ؟ سأنسى و أرمي الماضي بعيدا في ذاكرتي لأبدأ صفحة جديدة أكتبها فيقرؤها المستقبل الطّارق على بابي؟

أم أنّ التّجربة علّمتني فلن أسقط في ذات الفخّ و أنتقم منها أشدّ انتقام؟

ما كان قصده ؟

ما الذي ينويه في الحقيقة ؟

لم يضف كلمة على الذي قاله، و لم يسأله هو أيضا، بل بقيا سجينيْ صمت طويل إلى أن افترقا ...

لربّما استسلما للقدر ...

الأوّل طمعا في حياة دون آلام ...

و الثّاني آمِلا في صديق يتّبع سبيل العقل و الحكمة، فلا يتيه في ظلمات الكره و الانتقام.

ثلاث سنوات تمرّ كلمح البصر، كلّ اتّبع طريقًا أخذته مجاهدا في حياة كلّها معارك، و البعض ابتسمت له طواعية فكانت له على طبق، كذلك الأمر كان مع "إلهام".

نعم "إلهام" التي لها مع الحياة قصّة، صارت مسؤولة في شركة يملكها أبوها "صاحب المال و الجاه"، لم تتعب كثيرا و لم تبحث، كان عليها فقط أن تطلب فيُنفّذ أمرها، مدلّلة أبيها لا تشقى و لا تحزن، أمانيها حقيقة ترى النّور متى شاءت ...

غير أنّ الأوان قد آن، و صار من اللاّزم لشابة مثلها الالتزام، فبعد الإطاحة بعديد الشبّان بات من الواجب إنهاء اللّعبة، استمتعت بما فيه الكفاية و ملّت من كلّ هؤلاء الحمقى الذين يسقطون تواليا كالذّباب طمعًا فيها و رغبة في الارتباط بها، نعم، آن أوان اقتسام الحياة مع فتى الأحلام، و ما أدراك من هو ...

لمحت الرّجل في الكافيتيريا قبالة الجامعة التي كانت تدرس فيها، ترتادها مع بعض صديقاتها مرّة على مرّة، إلى أن اصطادت عيناها ملاكا أسودًا فرد جناحيه على قلبها فلفّه و اصطاده، فباتت الفريسة بعد أن كانت الصيّاد.

لم تر مثله في السّابقين، بلباسه الكلاسيكيّ و شعره الأسود الطّويل، لحيته تلك مرسومة بدقّة، طريقته في احتساء القهوة و قراءة الجريدة، تلك الحركات و السّكنات، تلك النّظرات الخاطفة في الأرجاء و التي سرقتها خفية عنه، أخذت عقلها و جعلت الرّغبة المجنونة فيه ديدنها:

" أنت لي و لن تكون لغيري".

باتت هلوسة ليل و نهار ...

حديث صباح و مساء ...

تفكير دائم لا يتوقّف ...

مرض سائر في الجسم يغزوه دون مقاومة ...

إنّه الإعجاب ... بل الحبّ من أوّل نظرة.

علمت الأيّام و الأوقات التي يرتاد فيها هاته الكافيتيريا و صارت تأتيها كلّما أتى، فقط لتشبع عينيها من رؤيته و روحها من حضوره، إلى أن عزمت على أن يكون الخيال هذا واقعًا، و الحلم حقيقة، قرّرت أن تكلّمه و تبادر، أن يكون لها السّبق، فلن تحتمل أن تأخذه منها أخرى، أو أن تتحبّب إليه من سوّلت لها نفسها ما سوّلته لها، لم تخسر معركة من قبل، و لن تخسرها الآن ...

ستتخلّى عن كرامتها في سبيله، فلن تكون أنثى من دونه، و ما قيمة كرامتها كأنثى إن لم يكرمها الرّجل الذي تريده فيجعلها سيّدة الإناث أجمعين ؟

في هذا اليوم قرّرت محادثته، اليوم أتت وحدها ليخلو لها الجوّ معه، هو كالعادة كان هناك غارقا في جريدته، ليس لديها وقت كبير لأنّه غالبا ما يذهب فور إتمام فنجانه، يخرج مسرعًا، يركب سيّارته و ينطلق.

لا تعلم أصلا إن كان متزوّجًا ... أو خاطبًا ... فلم تلمح أصابعه عن قرب، تلك عقبة أخرى يستحيل تجاوزها إن كانت بالفعل، و هذا ما لم تتمنّاه.

لم تفارق عيناها ظلّه، تتسارع نبضات قلبها و هي تحاول الوقوف و الاقتراب منه، الوقت يمضي و هي في تردّد، غير أنّ رغبتها الجامحة غلبتها على أمرها و أخذتها عنوةً إليه، لم تفد مقاومتها في شيء، تلك الكرامة التي تتغنّى بها كلّ أنثى، في الأخير هي وهم، ستار يسقط إذا ما دقّ القلب و صرخ الإعجاب طالبًا الوصل، قناع يخفي شوق النّفس لمن ترغب و العزم على الإتّحاد به مهما كان.

وصلت إليه، بل هي أمامه، و هو في بحر سهوه عنها غارق، إلى أن:

عفوًا على المقاطعة".

يستدير نحوها، يرمقها بتلك النّظرة، عيناه خضراوان، حادّتان، غريبتان عجيبتان، كم هو وسيم عن قرب، يبدو هادئا ملتحفًا السّكينة و الوقار، رائحة عطره تلك، لا تُصف، و لا تُقاوم.

ابتسم و يا ليته لم يفعل، فقد رمتها تلك الابتسامة في بعد آخر أنستها الكلمات ...

" تفضّلي، كيف أخدمك سيّدتي ؟".

توتّرت ثمّ أردفت و بصوت يرتعش خوفًا :

" في الحقيقة، أردت ... أردت أن أكلّمك".

يضحك الرّجل ضحكة شعّت من خلالها أسنانه كالدّرر البيضاء، يترك الجريدة من يده، يتأمّل الفتاة جيّدا ثمّ يقول:

" تفضّلي اجلسي".

أوّل خطوة ... ناجحة.

لكن ماذا بعد الآن، الأمر يزداد صعوبة و تعقيدًا، كيف تبدأ الحديث معه و تصارحه بإعجابها ؟ هكذا مباشرة ؟ لا مستحيل ...

ما العمل ؟

كيف السّبيل إليه ؟

كيف السّبيل إلى قلبه ؟

" اسمي "عصام" لا داع للخجل منّي".

لم تكن تنتظر هاته الكلمات التي تبعث على الرّاحة في مثل هذا الموقف الصّعب، استغلّت الفرصة و ...

" "إلهام" ... متشرّفة بمعرفتك، أودّ التعرّف عليك ... أكثر".

لم تدرك حتّى كيف نطقتها، تلك الكلمات، خرجت من فيها مترجمة لما في قلبها من إعجاب و انجذاب.

ساد صمت للحظات، أخطأت التّصويب، نعم لم تصوّب جيّدا و لم تختر التّوقيت المناسب، كانت مباشِرة أكثر ممّا ينبغي، متسرّعةً أيضا ...

" صراحة فاجأتِني".

ثمّ يضحك ... يضحك ليُوارِي دهشته الكبيرة بجرأة هاته الفتاة ...

نعم، جانبت الهدف و وضعت نفسها في موقف حرج، تخجل "إلهام" و تخفي وجهها بيديها.

" في الحقيقة ... لا أخفيك ... أنا أيضا لاحظتك، لكن لم يكن بوسعي التكلّم معك فبقيت أراقبك دون أن تتفطّني لنظراتي المتكرّرة، آثرت مراقبتك أوّلا، لكن لم أستطع الجهر برغبتي في الحديث معك خوفًا و استحياءً منك، كنت أشجع منّي أعترف، غير أنّ خشيتي من أن تكوني مرتبطة ...".

تقاطعه منتفضةً و تصرخ معلنة:

" لست مرتبطة، أبدا".

سمعها كلّ من كان حاضرا، تزيد دهشته هو، لكنّها لا تأبه لسواه، لا تهتمّ سوى لما سيقوله.

" آه ... جميل ... نعم فهمت".

ينقبض قلبها فرحا، الخطوة الثّانية، تمّت بنجاح.

" ما رأيُك بيوم السّبت ؟ على الرّابعة مساءً ؟".

لم تفهم قصده و بقيت تنظر فيه لبرهة.

" عفوًا ؟".

" موعد بيني و بينك، اليوم تشغلني أمور كثيرة، فأنا نائب مدير شركة كبيرة، على كاهلي مسؤوليّة عظيمة، لا أستطيع الخوض في موضوع يهمّني و يرسم لي مستقبلا آخر في مثل هذا اليوم، السّبت لا أعمل، فما رأيك أن نلتقيَ و نتحدّث أكثر ... و بصراحة أيضا".

موضوع يرسم له مستقبلا آخر ؟ ربّما عنى الارتباط ؟ هو يعنيه بكلّ تأكيد، تغمر الفتاة سعادة لا توصف، تكاد تذرف دموع الفرح، روحها تغرّد كعصفور وجد نصفه الآخر ...

" بالطّبع، نعم بالتّأكيد، ما رأيك أن نلتقي هنا ؟".

" و هو كذلك، إذن يوم السّبت، الرّابعة مساءً في هذا المكان".

" اتّفقنا، أتركك الآن ... "إلهام" ".

كم كانت رنّة اسمها عذبة، كيف لا و قد صنعتها شفتاه الجميلتان...

" بالطّبع ... "عصام" ".

قلبها يدّق طبول الإعجاب الذي لن يطول و يصير حبًّا يجرف معه كلّ العواطف، يستأذن، يأخذ جريدته و يتّجه خارجا إلى سيّارته الفخمة، و قبل أن يقلع يتأمّل "إلهام" من بعيد، أمّا هي فلم تزح ناظريها عنه لحظة، تلوّح له بيدها، يشير بيده أن قد رأيتك، لازلت معك أينما كنت، يبتسم و يذهب تاركًا إيّاها غارقة في أحلام اليقظة إلى حين يوم اللّقاء، يوم الحقيقة، يوم عقد الحبّ بين قلبين.

الحياة غريبة، تكون سببًا في تحطيم القلوب، فتكافئك الحياة بقلب تريده، تلهو بمشاعر النّاس، فيأتي من يحترم مشاعرك، تحتقر الآخرين و تدوس على كرامتهم، فيعطيك القدر أجمل ما كنت تتخيّله: رجل يشدو قربك و يحترمك كإنسان.

القدر و العدالة ... لا يلتقيان دوما.

ربّما لحكمة خفيت على عقول البشر ؟ أو لأمر كان تأجيله أولى و جهلناه ؟

هي الحكمة الربّانية التي يعجز عن تفسيرها العاجزون.

يمرّ الزّمن سريعًا و نحن في اليوم السّبت، السّاعة تشير إلى الرّابعة مساءً و نحن في نفس الكافيتيريا، تنتظر "إلهام" فارس أحلامها على أحرّ من الجمر، أتت قبل الموعد بنصف ساعة، لم تستطع الانتظار أكثر، في نفس الوقت يقتلها الخوف و يشتّتها الارتباك، حسابات كثيرة تدور في ذهن الفتاة، كيف سيجدني اليوم ؟ أأعجبته حقًّا ؟ ماذا سيقول ؟ بماذا أجيبه ؟ كيف ستكون نهاية اللّقاء ؟ ...

رغم أنّ كلّ الإشارات تدلّ على نهاية واحدة شبه أكيدة، إلاّ أنّ بعض الشكّ لا يزال يراود الفتاة، و ذاك الشكّ هو الذي يجعلها قلقة و متوتّرة.

ها قد وصل في الوقت المحدّد تماما، يا له من رجل أنيق بنظّاراته الشّمسيّة السّوداء و لباسه الكلاسيكيّ المثير، رأته فذابت، لم يعد للكلمات معنى الآن، كيف تصفه و قد أخذ عقلها و سجن روحها فلا تستطيع سوى الاستسلام لهيبته، رجل ثريّ، وسيم، ناجح، هذا "الملاك" الذي كانت تبحث عنه فأتاها طواعية، حلم و تحقّق.

يحيّيها و يعتذر أن تركها تنتظره، فتضحك كالبلهاء، لا تدري لماذا، فقط لتتجاوز موقفًا لا تجد له الدّور الأنسب، يستأذن فتأذن له على استحياء، ينزع نظّاراته و يجلس قبالتها، حين انحنائه يأخذها عطره مرّة ثانية إلى المجهول، فيزيد شغفها به، و في نفس الوقت يزيد ارتباكها.

يطلب قهوة سوداء مع هلاليّة، هي تتناول مثلّجاها التي ذابت بخجل، بعد لحظات يتجرّأ "عصام" هاته المرّة و يقول:

" حسنًا، لمَ لا نتكلّم في المفيد الآن ؟".

" المفيد ؟ آه ... نعم صحيح ... عفوًا –تضحك- كما ترى أنا متوتّرة نوعًا ما".

" لا تقلقي و كوني مرتاحة، هذا أمر عاديّ".

في تلك اللّحظة حاولت تجاوز خوفها و مجاراته في صراحته التي، فقرّرت أن تكون السبّاقة في الاعتراف له بإعجابها به كما أخذت زمام الأمور في لقائها الأوّل، لكن شيء ما

يعقد لسانها، ثقل كبير يمنعها، لا تستطيع أن تبادر، لا يمكنها مستحيل، رغم عزمها تبقى تلك الفتاة الضّعيفة التي لا تختلف أبدًا عن كلّ الفتيات الأخريات في هذا الموقف.

" "إلهام" ؟ ما بك ؟".

" لا ... لا شيء، فقط ... لا أدري أشعر بضيق في التنفّس".

" ماذا ؟ أأنت بخير ؟".

" لا تقلق، إنّه التوتّر".

يبتسم ثمّ:

" ربّما حينما تسمعين ما سأقوله لك ستتحسّنين متأكّد من ذلك".

بسرعة يزوق ذاك الضّيق و يشرق وجهها بنور الآمال و الأحلام، إنّها اللّحظة السّحريّة التي تحلم بها كلّ فتاة، بسرعة تستعيد وعيها و قواها:

" ما الذي تريد قوله ؟".

" حسنًا ... "إلهام" أريد أن ...".

تقاطعه:

" انتظر، دعني أقولها أنا أوّلا".

" لا بأس ... كما تريدين".

" "عصام" ... أنا معجبة بك، و أطمع أن أكون جزءً منك، أتمنّى أن أكون حبيبتك".

فعلتها، بصعوبة لكن قالتها، تتنفّس بسرعة حتّى تعوّض ما فقدته من جهد سبّلته في الإفصاح عن مشاعرها الجيّاشة، تنظر فيه بحذر، تنتظر ردّة فعله، هو ينظر فيها دون حراك، أدهشته، ربّما لم يجد بماذا يردّ عليها سوى أن ... ضحِك.

نعم ضحِك ...

و لم يتوقّف عن الضّحك بصوتٍ عالٍ حتى استدار الجميع و تساءلوا عمّا يحدث ...

لم تنتظر "إلهام" ردّة الفعل هاته، تجتاحها الحيرة لحظتها، أتلك الفرحة ؟ أهكذا يعبّر عن سعادته بما سمع ؟

يأتيها الردّ الفاصِل:

" ما أغباكِ".

تُشلّ حركتها، تجمد في مكانها، لم تصدّق ما سمعته ...

بنظرة و لا أحدّ يردف "عصام":

" طمعتِ في المال و الجاه أليس كذلك ؟ أيّتها المتحاذقة".

ما به ؟ ما الذي حصل له ؟ ما الذي يجري بحقّ الإله ؟؟؟

تتلاشى تماما بعدما سمعته، صدمة لا توصف، تحاول على الأقلّ فهم ما يجري:

" لكن ما بك يا "عصام" ؟ لماذا ...".

يقاطعها:

" اصمتي و انظري فقط".

تشخص عيناها و تخشع جوارحها للمشهد الذي سيغيّر حياتها بالكامل:

يقف، يضع أصبعيه بالقرب من عينه اليمنى، ينزع العدسة اللاّصقة الخضراء، تليها الثّانية من عينه اليسرى، عيناه بنيّتان في الحقيقة، ثمّ يرفع يده لينزع الشّعر المستعار الأسود، فشعره بنفس اللّون لكن أقصر بكثير، و ليُكمل العرض يتخلّص من لحيته التي ألصقها بعناية و يرميها بالقرب منها، هي في حالة من الذّهول لا تحتملها الكلمات، تنكمش على نفسها و ترتعش، تدرك حقيقة الأمر أخيرا ...

ينظر في عينيها الجاحظتين و يقول:

"أنا الضّحيّة رقم واحد و عشرون "سامي مأمون" ".

الصّاعقة ...

القاضية ...

الجحيم يفتح أبوابه مُستقبلا روحها المعذّبة ...

فيوفيها العذاب الأعظم الذي ستخلد فيه بعد الذي عاشته اللّحظة ...

تلك البداية فقط ...

" لا مستحيل ... هذا كابوس".

يعود بها الزّمن بسرعة إلى ذلك اليوم الذي أذلّته فيه، لا زالت تتذكّره جيّدا ...

" كيف شعورك الآن و أنت تذوقين مرارة الذلّ و الهوان كما ذقت ؟ كنت على يقين من أنّك ستفعلين أيّ شيء للتقرّب منّي، أقصد من "عصام" الرّجل الثّريّ، أنت التي أعماك الطّمع و الغرور، لا هدف لك سوى إرضاء نفسك الخبيثة، ربّما تعلّقتِ بي فعلا، لكن ما جذبك أوّلا هو المظهر و هذا الذي أهمّك فقط، بالتّأكيد غفلت عن الجوهر و إلاّ لما تسرّعت و رُمتِ القرب و الارتباط هكذا دون البحث عمّن أكون و كيف هي أخلاقي و قيمي، انتظرت اللحظة هذه بفارغ الصّبر لو تعلمين، كنت مستعدًّا لأنتظر الدّهر كلّه إن استلزم الأمر ...".

تبكي "إلهام" بحرارة:

" لقد ... لقد خدعتني".

يردّ بهدوء:

" نعم، فعلتها و انتقمت لنفسي، نفسي التي تعذّبت ثلاث سنوات وجدت الآن الخلاص، أمّا أنت فيبدأ عذابك اليوم ...".

وسط دهشة الجميع و بقاء "إلهام" كالتّمثال في مكانها جاحظة العينين يقترب "سامي" منها و ينحني حتّى تلامس كلماته أذنها جيّدا:

" هذه هي اللّعبة أليس كذلك ؟ أنت الخاسرة فيها اليوم، على الأقلّ لم أتركك تنتظرين قدومي كما فعلتِ في موعدنا أتتذكّرين ؟ إن كان هناك أمر احترمته اليوم، فبالتّأكيد هو الوقت الذي لن أضيّع منه دقيقة أخرى معك ...".

يترك لها ابتسامة عريضة، يخرج من الكافيتيريا، يصعد السيّارة و ينطلق ...

أمّا هي ...

فالدّموع الحارّة تشقّ وجنتيها الورديّتين ...

في صمت رهيب لم تقدر على البكاء ...

خارت قواها و لم تعد تحسّ ...

مات فيها كلّ شيء ... غابت عيناها و ذهب الأزرق الصّافي منهما إلى الأبد ...

اسودّت روحها، صارت تهذي بكلام غير مفهوم ...

هي حالة من الجنون ...

تحطّمت ... فذُمّرت.

في لحظة ندم قالت:

" يا إلهي ... ماذا فعلت".

بالتّأكيد هو عقاب أخفاه القدر.

ليكشف عن نفسه ... اليوم أو غدا.

"العودة"

وهران، الجزائر 2022:

لم أتوقّع ذلك، نخطّط للحياة و نرسم لها سبلا و نواحي، و إذا بالقدر يحكم بحكمه و يقول قولته الأخيرة...

لا أصدّق أنّي تجاوزت المحنة و تركت خلفي الآلام حتّى بعد سبع سنوات، مشكلتي أنا أنّي لا أنسى الأحزان بسهولة، ما يؤثّر فيّ عموما يبقى وشمًا محفورا في نفسي، لكن مع مرور الزّمن و تعاقب الأحداث اقتنعت أخيرًا بأنّ الاستمرار في حالة الأسى تلك لا تعوّض ما خسرناه، و إنّما يجعلنا حبيسي تلك اللّحظة لزمن طويل يليها، حتّى إذا طرقنا باب الخروج من هاته الدّنيا و جدنا حياتها التي قضيناها دون هدف حقّقته، خالية خلوّ البيت المهجور، لنتيقّن متأخّرين أنّها كانت معلّقة على آمال زائلة، خيال كاذب و أماني مستحيلة ...

ينهشنا النّدم و تُهلكنا الحسرة في وقت لا عودة فيه إلى الوراء ...

هناك دائمًا ما نتأسّى به لنتجاوز أحزاننا التي نظنّها دائمة، الأمان و الطّمأنينة، السّعادة غير مرتبطة بأشخاص بالرّغم من أنّنا نشعر بحضورهم بتلك الأحاسيس المرغوبة، لأنّه لو كان الأمر كذلك لزالت بزوالهم و لا عودة لها بعد ذهابهم، أهذا ما يحصل بالفعل ؟ أبدا ...

نحن الذين نربط الفرح و الحزن و الآمال و الأحلام و المشاريع و المستقبل بأشخاص أعزّة على قلوبنا نعم، لكن إن فقدناهم موتًا أو هجرانًا نظنّ خطأً بدافع ألم اللّحظة أنّ كلّ أمر جميل ذهب معهم ...

أحقًّا سينتهي دورنا بزوالهم من هاته الحياة ؟ دورنا في الحلم، في الأمل، في العيش و تمنّي الأفضل ... الحقيقة أنّهم جزء منّا و من ذاكرتنا الباقية، جزء من حياتنا و ليسوا كلّها مهما بلغ حبّنا لهم ... كلّ واحد فينا جزء من كلّ، و ليس الكلّ جزء منّا.

اليوم أتخطّى صفحات الماضي دون نسيانها، لأكتب مستقبلي على نفس المذكّرة لكن في صفحات بيضاء جديدة، صفحات ملأها زوجي أملاً و زادها ابني "آدم" سعادة، حفظهما الله و رعاهما.

"حياة"

الجزائر العاصمة، الجزائر 2015

"حياة" اسم جميل ذو معانٍ كثيرة، ككتاب يحمل في طيّاته اليأس و الأمل، الحزن و السّرور، الخيْبات و النّجاحات، مزيج من كلّ شيء، ما تتوقّعه و لم تتوقّعه.

"الحياة" ساحة ميلئة بأحداث تتجاذب و تتصارع، في آخر كلّ معركة يقتنصك سبيل واحد يجبرك على الصّمود عنوة و أنت تشقّ طريق الخلاص حتّى النّهاية، "الحياة" اجتهاد، عطاء، و عذاب حتّى تبلغ مرادك ... أو لا.

فتاة اسمها من اسم كلّ هاته الآمال و الآلام، من واقع و أحلام، شابّة في مقتبل العمر تدرس في الثّانويّة، عاشت في عامها هذا أهوال الدّنيا التي تكالبت عليها بلا رحمة، مصائب حوّلت مجرى حياتها كليًّا، أشدّها وقعًا وفاة والديها في حادث مرور خطير.

قبل شهرين فقط كان يُضرب مثل النّقاء و الصّفاء بـ "حياة"، الفتاة الخجولة الخلوقة التي تحبّ الجميع، تربية تفرض الاحترام، هدوء و رصانة، ياقوتة هي حلم كلّ شاب، لكنّ الفراغ الذي خلّفه غياب الوادين و هي قاصر، كذلك تخلّي الأهل و الأقارب عنها بعدما وقع دون سبب قلب نظرتها للمجتمع الذي كان بالأمس القريب يبتسم لابتسامتها و يسرد جميل أخلاقها.

حينما احتاجت لبعض العون ممّن تعرفهم أداروا ظهورهم منكرين وجودها، رامين بمسؤوليّتهم نحوها في بحر النّسيان.

في اليُسر الكلّ معك و في العسر الله معك، هكذا يُقال، و كذلك الحقيقة.

بقيت معها خالتها التي لم تكن يومًا خير رفيق، فوجودها من عدمه سواء، كلّ ذلك و غيره دفعها إلى ما تخشاه الأنفس و تتعوّذ منه: الانحراف.

اكتشفت عالمًا آخر لا تنتمي إليه، و لم تكن لتنتمي إليه لولا ما سبق، و ما وسوست به نفسها المّارة بالسّوء، نعم هو عالم المخدّرات.

أمضت وقتها مع شباب همّهم الوحيد المتعة الآنيّة، لا أمل و لا هدف في هاته الحياة التّي تخلّت عنهم –على حدّ قولهم- فتخلّوْا عنها، يلومون كلّ ما تحرّك و سكن فيبرّرون مصابهم بوجوده، هكذا يتحرّرون من أيّ مسؤوليّة أو واجب ليعيشوا أوقاتهم متألّمين مستمتعين، أرواحهم معلّقة بأوهام جعلوها حقيقة، و تنكّروا لهاته الأخيرة فكانت الوهم العابر.

في يوم ككلّ الأيّام تلتقي مجموعة المدمنين ذكورا و إناثًا في الثّانوية التي يدرسون فيها، و بالذّات في مغسل البنات خِفية وقت الرّاحة، يقتسمون الحبوب المهلوسة التي دفعوا لقاءها الغالي و النّفيس، يتعاطونها في جوّ من الهوس و المتعة المجنونة، لحظات هروب الاستغناء عنها محال، تستعيد "حياة" فرحتها الضّائعة للحظات معدودة، تضحك بأعلى صوتها و ألوان اللّذة المتناهية تدور حولها إلى حين، لا تدري لماذا تضحك، المهمّ أنّها فرحة، لا يهمّ بماذا يفكّر الغير، أحكامهم و انتقاداتهم، هي وحدها من تقرّر كيف تكون و مع من تكون، في الأخير هي الحقيقة الوحيدة الموجودة، و كلّ شيء حولها وهم، هاته الحياة وهم.

دائما هناك من يحرس المدخل، لكن صاحب الدّور لم يفلح اليوم في التصدّي لأحدهم و منه من الدّخول، إنّه "صابر".

"صابر" شاب يدرس في القسم النّهائيّ تماما كما "حياة"، لا يأبه به الآخرون و لا يأبه لأمرهم، لا تأثير لحضوره، فما بالك بغيابه، ليس له أصدقاء، لا في الثّانوية و لا في غيرها، هادئ لا يتكلّم إلاّ نادرًا، بسيط المظهر يكره التمظهر، هو جار "حياة" يعرفها جيّدًا، يدرك تمامًا أنّها مع هاته الجماعة فقد راقبها من قبل و رآها تخالطهم و تقضي أوقاتا معهم.

يقف "صابر" أمام الكلّ بعد أن شقّ طريقه بالقوّة داخل المغسل، تاركًا "الحارس" طريح الأرض ضحيّة الدّوخة من الضّربة التي تلقّاها...

بصعوبة يتمعّن في أوجههم المصابة بلعنة الضّياع، واحدًا واحدًا وسط غيمة من دخان يقطع النّفس، و في ظلمات كهف لا تُرى نهايته، كهف انبعثت منه روائح القذارة من الوسخ الذي تراكم فيه و الجماعة لا تبالي ...

ها هي ... ترقص و تغنّي ... هي في عالم آخر، يُغلق عينيه مُتأسّفًا لما يرى، يقترب منها، يجذبها من طرف قميصها مُخرجًا إيّاها من فوضى الرّذيلة، يطلب من رفيقيه اللّذان انتظراه خارجًا كما أوصى أخذ "المجنونة" بعيدا فيفعلان، في تلك اللّحظة يعترض طريقه ثلاثة شبّان يمنعانه من الخروج، كانوا في حالة متقدّمة من الهذيان:

الأوّل:" ما الذي تفعله يا هذا ؟".

يستدير و يجيبه بثقة متحدّيًا إيّاه:

" أخرجتها ... ماذا أنت فاعل ؟".

يضحك ضحكًا خفيفًا مستفزًّا ثلاثة جبال متمايلة، فيغضبون، يصيح الثّاني:

" دعوه لي، سأعلّم هذا القزم معنى الاحترام".

"صابر" في مكانه لا يتحرّك، و كأنّه ينتظر حدوث أمر ما، و في لحظة سهو يلكمه هذا الشّاب لكمةً قويّة تسقطه أرضًا، يكمل عمله و "صابر" على الأرض يتلقّى اللّكمات دون مقاومة، ينضمّ الاثنان لهاته المائدة المفروشة، يركلانه بكلّ قوّتهما و بشراسة في أيّ مكان وقعت عليه الضّربة، لا أحد يتدخّل رغم ارتفاع الأصوات و صياح "صابر"، تنهمر دماؤه سواقيًا من فيه و ينزف بشدّة، لكنّه يضحك، نعم يضحك فتشتعل نار غضبهم أكثر ليضاعفوا اللّكم و الرّكل، يتدخلّ حارس الثّانويّة متأخّرًا و يستدعي الأمن في غياب المدير، يتدخّل بعض الشبّان لتهدئة الوضع ...

لا دراسة اليوم في ظلّ هاته الأحداث التي وقعت، بعد إجراء تحقيق مدقّق مدعوم بدلائل ماديّة يُزجّ اثنان منهما في السّجن – و قد كانا بالغيْن- و الثّالث أُدخل مدرسة إعادة التّأهيل – لأنّه قاصر- بتهمة حيازة و تعاطي المخدّرات في حرم مؤسّسة تربويّة، و الضّرب و الاعتداء عن سبق إصرار على تلميذ داخل الحرم، لن تخفّف عنهم العقوبة بسبب بتأثير المهلوسات كما ينتظرون، كلّ تلك الرّضوض التي تسبّبوا بها لـ "صابر" لن تشفع لهم، هو الآن في المشفى يُعالج.

لم تُستدعى "حياة"، لم يُربط اسمها بهؤلاء في هاته القضيّة رغم أنّ البقيّة قد تمّ استجوابهم و التّعامل معهم بحسب ما ينصّه القانون، بقدرة قادر أفلتت من مشكلة أخرى.

بعد الحادثة تلك، لزمت البيت لعشرة أيّام، الوقت الذي أمضاه الشّاب في المستشفى، بعد يومين يخرج عائدا إلى بيته، بعد أن ارتاح قرّر زيارة "جارته"، فدقّ الباب و ...

" السّلام عليكم ... كيف حالكم ؟".

" آه يا ولدي، نسأل أوّلا عليك و عن صحّتك، كيف حالك يا ولدي ؟".

" بخير يا خالة و الحمد لله".

" وجهك أزرق اللّون ممّا فعله بك هؤلاء الوحوش، الحمد لله أنّهم استوفوا جزاءهم الذي يستحقّون، ادخل يا ولدي ادخل".

يجلس على الأريكة بصعوبة.

" أشكرك يا بنيّ على ما فعلته من أجل "حياة"، لقد روى لنا أحد الحاضرين ما حدث، لولاك لكنّا اليوم في سن و جيم مع إدارة المدرسة، لو علم المدير لطردها، ربّما تطوّر الوضع و وصل الأمر إلى الشّرطة، بسببنا أنت في هذه الحال ... ".

لا قولي هذا يا خالة، ما قمت به واجب، أمر عاديّ فنحن عائلة واحدة، وهي ؟ كيف حالها ؟".

تطأطئ الخالة رأسها حزينة محتارة:

" ليست على ما يرام يا "صابر" ".

" ما بها ؟".

" لم تخرج من البيت عشرة أيّام متتالية، ترفض الكلام معي، لا تذهب للثّانويّة، ليل نهار تبقى في غرفتها، تغلق على نفسها و لا تخرج حتّى لاستنشاق الهواء، وقت الغداء أو العشاء

تأكل قليلا و هي صامتة ثمّ تترك الباقي و تذهب لتكمل سباتها في تلك الغرفة اللّعينة، حاولت بشتّى الطّرق أن أخرجها من عزلتها دون فائدة، الآن قل لي ماذا أفعل معها ؟".

يبقى صامتًا.

" بما أنّك هنا حاول إقناعها بالرّجوع يا ولدي، أريدها أن تكمل دراستها و تجتاز الامتحان، فهذا عام بكالوريا، عام مصيريّ، ستضيّع مستقبلها إن استمرّت في تجاهلي، هي عنيدة، بالفعل عنيدة".

رغم أنّ الخالة في عادتها مستهترة، إلاّ أنّ الأمور المهمّة المهمّة كهاته لا تتغاضى الطّرف عنها، يفهم "صابر" الوضع، يأسف لذلك فقد ظنّ أنّ الأمور قد عادت لمجاريها بعدما حدث.

تستأذنه و تنهض لتُعلم "حياة" بقدومه، تتّجه نحو المطبخ لتحضّر للضّيف القهوة و كلّها يقين بأنّها لن تخرج لاستقباله.

و كانت المفاجأة، عكس ما ظنّته تماما تخرج الفتاة من خدرها، تتوجّه إلى غرفة الضيّوف و توافيه فيها، لم تصدّق الخالة أنّها خرجت، كم اشتاقت لصرير باب الغرفة و هو يُفتح دون خشية سماعه من كليتيهما، غمرتها سعادة كبيرة، فأسرعت في تحضير القهوة لتقدّمها و تتركهما على راحتهما.

تأتي و تجلس قبالته، جلسة "ذكوريّة" غير محتشمة، يديها مرتخيتان على تلك الأريكة، رجل على رجل و هي لا تزال بملابس النّوم المخطّطة، ينظر إليها و يطيل النّظر، فجأة:

" ماذا ؟ أتريد صورتي ؟".

يبتسم و يردّ:

" كلاّ لا أريدها".

" إذن ماذا ؟ ما الذي تريده ؟".

تكلّمه غاضبةً وكأنّه عدوّ.

" الحمد لله أنّك تكلّمت، على كلّ حال أنا هنا لأطمئنّ عليك".

" لست أبي أو أخي لكي تقلق عليّ".

" فعلا لست كذلك، غير أنّي منقذك من الورطة التي حشرت نفسك فيها، أنسيتِ؟".

تصمت و تدير رأسها إلى الجهة الأخرى.

" لم تشكريني".

" لن أفعل".

يضحك "صابر" ضحكًا عاليًا تستغرب منه الفتاة، في تلك اللّحظة تأتي الخالة بالقهوة و بعض الكعك، تترك كأس ماء بارد مع ما أحضرت و تعود مسرعة إلى غرفتها، في الحقيقة تراقبهما من شقّ الباب و كلّها أمل في هذا الشّاب.

يحتسي "صابر" قهوته، يضع الفنجان و يقول:

" لكنّك مدينة لي، و ستبقيْن كذلك ما دُمتِ لم تقضي دينك".

تنظر فيه مستغربة:

" لم أطلب منك التدخّل في شؤوني، كان ما كان لأنك متطفّل".

" بل كان ما كان لأنّني ...".

ثمّ لم يكمل، تنتظر إكماله للجملة النّاقصة لكنّه لم يفعل، هي بالفعل مدينة له مهما اختلقت من أعذار، نكران هذا الجميل درب جنون، تهدأ قليلا و تخمد ثورة غضبها:

" و كيف أردّ الدّين يا تُرى ؟".

" يعني تعترفين أنّك مدينة لي ؟".

يبتسم "صابر" ابتسامة منتصر، في حين تعود ثورة غضبها بسرعة، يستشفّ ذلك و يحاول تهدئة الأمور من جديد، لكن هاته المرّة تبدو عليه الجديّة و الصّرامة من نظرته و نبرة صوته:

" الدّين الذي ستقضينه هو عودتك للمدرسة".

" ماذا ؟".

" حان الوقت لتعودي إلى الثّانويّة و تُكملي دراستك، أمامك امتحان مصيريّ كما ينتظرني آخر السّنة، لقد ضيّعتِ بما فيه الكفاية من دروس".

تردّ بعنف:

" لن أعود للثّانويّة".

بدأ الغضب ينتابه، لكنّه يتمالك نفسه و لا يترك نيرانه تلتهب:

" و بعد ؟ ماذا ستفعلين إن لم تعودي ؟ إن لم تدرسي ؟".

" ليس شأنك، لست أصلا فردًا من العائلة، كيف تسمح لنفسك بالتكلّم معي و كأنّني تحت وصايتك ؟ اتركني و شأني".

إنّه البركان، بركان يتفجّر من الدّاخل، نفسه الهادئة تختفي لتترك لنفسه الغاضبة مجال الردّ، فبعد سماع ما سمعه لم يعد للصّبر فسحة، نهض من مكانه و أخذ كأس الماء الذي بجانب الفنجان و بقوّة يرمي الماء على وجهها فيتبلّل، حتّى شعرها و جزء من قميصها، فتصرخ:

" ما الذي فعلته ؟ أجُننت ؟".

يضع الكأس على الطّاولة و يضرب عنادها بقضبان الحديد فيسجنها في نظرته الحادّة:

" كفاك من لعب دور الفتاة المظلومة المغلوبة على أمرها، المقهورة التي لا تقاوم، لأنّه لا سبب للمقاومة بعد الذي حدث، فقدتِ والديْك في حادث نعم، ألم كبير و وحدة، نعم، لكن أهذا هو سبب السّخافات التي تقومين بها ؟".

تندهش من قوله، ترتبك تماما، فهو لم يكلّمها قطّ بمثل هاته اللّهجة ...

" خسرت كلّ أفراد عائلتي، أبي، أمّي و أختي يوم احترق منزلنا، انتقلت مع جدّي إلى هاته المدينة و أكملت دراستي بالرّغم من الصّعوبات، أبلغ اليوم تسعة عشر سنة، لم اجتز بعد الشّهادة، نعم خسرت عامين ولم أستسلم، أعمل بدوام جزئيّ من أجل توفير المؤونة و اللّباس، فأنا أعيش وحدي بعد وفاة جدّي، جميعهم تخلّوا عنّي حتّى أقرب الأقربين، ألم و أعباء، قسوة الحياة، مصاريف كثيرة، لا نتكلّم عن الكراء و فاتورة الكهرباء و الغاز، كذلك فاتورة الماء و غير ذلك، لم أجد من يساندني في أحلك الظّروف، لكنّني درست، و وصلت، هل تعاطيت مخدّرا لأنال من كلّ من نالوا منّي ؟ أبدًا، بل كذلك سأنال من نفسي".

تبقى منصتة لما يقوله و قد نال منها الذّهول تماما، يرفع صوته أكثر:

" حاربت، و سأحارب من أجل البقاء، هذا ما فعلته أنا، فماذا فعلتِ أنت ؟".

ينقبض صدرها و عيناها لا تفارقانه ...

" أنا أيضا أشتاق لأمّي، لأبي و أختي، كذلك لجدّي، تأكّدي إن كانت السّموم تلك ستعيدهم لي فأنا أوّل من سيتعاطاها".

إنّها ... دموع، دموع تتجمّع في عينيْ الشّاب، تكاد ... تكاد تترك عينيه لترحل إلى خدّيه، غير أنّ دموعها سبقت، نزلت حارّة تأثّرًا بما قال، أحسّت به، بالفعل، شعرت بعمق ذاك الحزن الدّفين النّاخر في نفسه، و الذي يبقيه سرًّا مخفيًّا عن الكلّ ...

لم تعرف ماذا تفعل، أتعتذر؟ أتهرب و تختبئ كالطّفلة الصّغيرة في غرفتها ؟

احمرّت خجلا منه، أمّا هو فخرج مستاءً مغلقًا الباب خلفه.

الخالة خلف الباب لم تحرّك ساكنة، هي كذلك صُدمت بما سمعته.

" أكنت مُخطئة ؟" تسأل نفسها المتردّدة المحتارة، انهمرت الدّموع و لم تتوقّف، انهمرت فكانت دليل النّدم و الصّحوة.

بعد يومين عادت "حياة" إلى الثّانوية و لازمت دراستها، لم تكن العودة سهلة، صعوبات هنا و هناك، وشوشات كلام، تحاشي و استبعاد، في الأخير تلك العودة المرجوّة كانت ممكنة، تفتح الدّنيا ذراعيها للعائدين الرّاغبين فيها، للتّائبين من معاصيهم، للمجاهدين في سبيل نجاحهم رغم العقبات.

توالت الأيّام و لم تتكلّم "حياة" مع "صابر" منذ آخر لقاء في بيتها، و لو تقابلا – ونادرا ما يحدث- يتحاشى أحدهما الآخر، مجرّد تحيّة عابرة لا تشفي غليل الرّغبة في التّواصل ...

شعور غريب حيال هذا الشّاب، منذ إنقاذها من تلك الورطة بات حاضرا في خيالها لا يفارقه، لا تدري ما بها، رغبة ملحّة فيه لا تأفل، لم تألف غياب صورته عن ناظريها هكذا من قبل، تشتاق له في الحقيقة ...

هو كالأخ الأكبر ...

أو أكثر بكثير ...

أو لا ... ليس كالأخ بتاتا ...

بل ...

لا تدري الآن ما هو شعورها حياله، غير أنّها لا تنكر إعجابها به ...

المهمّ أن يكون بقربها، أن لا يبتعد ...

.....

و هكذا يمرّ الزّمن سريعًا حينما يغفل عنه المنشغلون، انتهى العام الدّراسيّ و كُلّلت جهود "حياة" بالنّجاح في شهادة الباكالوريا، كذلك نجح "صابر" فكانت الفرحة كبيرة، اغتنمت الفتاة هاته الفرصة لكسر الحاجز الذي وضعاه بينهما، استجمعت قواها و عزمت على الذي أرادته دومًا: استعادة "صابر".

صنعت كعكًا و ذهبت إلى بيت جارها، طرقت الباب لكن لا أحد، مرّة ثانية، لا أحد يردّ، ربّما خرج، همّت بالعودة و إذا بصوت خطاه خلف الباب، و كأنّها متثاقلة تجرّ نفسها جرًّا:

" نعم، أنا هنا".

يفتح الباب فيجدها واقفة تنتظره، تتأمّل وجهه جيّدًا بعد زمن من الحرمان، كان من الواضح أنّ الإنهاك و الإعياء نقشا عميقا في وجهه المتعب، يده على صدره ، يتنفّس بصعوبة:

" كيف حالك يا "صابر" ؟ لا تبدو بحال جيّدة".

" لا الحمد لله، تعب العمل فقط".

" لا ترهق نفسك كثيرا".

تقدّم له الكعك و نهديه ابتسامة لم يرها على وجهها من قبل.

" تفضّل، مبارك نجاحنا في شهادة البكالوريا، و إن شاء الله مزيدا من النّجاح لكلينا في المستقبل".

تتغيّر تقاسيم وجهه، في تلك اللّحظة تُعيد له "حياة" الابتسامة الضّائعة، ربّما كانت الوحيدة القادرة على ذلك، شعور غريب، لا يوصف ...

لا يريد فراقها بعد اليوم ... لا يريد الابتعاد أكثر عنها ...

و يعود الزّمن مرّة ثانية ليسرع خطاه نحو المستقبل، مرّت الشّهور بنفس سرعة الأيام المتوالية، تزاول "حياة" دراستها في نفس الجامعة التي يرتادها جارها "صابر"، يجمعهما نفس المكان مرّة أخرى، ليس حظًّا، و ليست صدفة، لا وجود للصّدف أصلا، و إنّما هو قدر الله، تتكرّر لقاءاتهما مرّة مع جماعة أصدقاء، و مرّة في قاعة المحاضرات مع طلاّب كثر، صارت علاقتهما وطيدة، قويّة، بل أكثر من ذلك بكثير ...

ذات مرّة و هما خارج الجامعة يقود أحدهما الآخر في طريق العودة:

" أتعلمين ؟".

" ماذا ؟".

" بتّ ... لا أستطيع الاستغناء عن وجودك قربي".

قالها مطأطئا رأسه خجلا من "حياة"، و خصوصا خائفًا من ردّة فعلها غير المتوقّعة، إلاّ أنّه قالها بكلّ عفوية و سهولة ...

هي تقف دون حراك ...

يكمل هو طريقه دون إدراك منه أنّه يتمشّى لوحده، بعد هنيهة يدرك متأخّرا أنّه يصاحب نفسه، يتوقّف لكن دون أن يستدير، يدرك أنّه قال ما لا يجب قوله في الوقت غير المناسب، يشعر بالإحراج الشّديد:

" يا إلهي ماذا فعلت ... ما كان عليّ أن أكون مباشرًا هكذا، لماذا تسرّعت ؟ ما أغباني".

قالها في نفسه متردّدا، خائفًا من عاقبة ما قاله، غير أنّه يستدير ليرى نتيجة ما لفظه من "حماقة"، و إذا بأنوثة لم ير لها مثيلا من قبل، و لم يحسّ بعذوبتها في أي إنسان، إنّها تبكي، تبكي كالطّفلة الصّغيرة و يداها على فمها، تذرف دموعًا تجري على وجنتيها الورديتين كأنّها خيوط فضيّة لامعة، ترتسم ابتسامة عريضة على وجهها البريء، تمسح دموعها سريعًا، تريد أن تتأكّد ممّا سمعته، لربّما هو خيال ليس حقيقة:

" أرجوك ... أعدها".

يدرك الفتى أنّ لها شعورا خاصّا تكنّه له، يشتدّ نبضه، يقترب منها أكثر، هي لا تستطيع النّظر في عينيه من فرط الخجل، و بكلّ هدوء و ثقة:

" سأعيدها و بطريقة أخرى ... لكن ليس الآن".

" متى ؟".

" يوم التخرّج".

حتّى دون شرح، دون كلام، يدرك كلاهما أنّه للآخر، منذ هاته اللّحظة سينبض قلبان نبضا واحدًا، فشعورهما واحد متبادل، بتلميح دون تصريح تتكلّم الأعين و تُفصح الحركات، تلك لغة الإعجاب، أرقى أنواع الإعجاب و الانجذاب.

لحظات في سجلّ أيّامٍ لا تُنسى، نعم، آن الأوان لترك الجامعة للقادمين الجدد، إنّه اليوم الموعود، يوم التخرّج، صارت حياة "امرأة" مكتملة، و "صابر" رجلا بمعنى الكلمة، العالم ينادي، و لا زال الأمر الذي انتظرته الفتاة عالقا لم تُكشف تفاصيله: الشعور الحقيقيّ للشّاب نحوها، حبٌّ أو مجرّد إعجاب ؟ لذلك وجب التّصريح، فقد انقضت أيّام التّلميح.

بالنّسبة للفتاة، روحها، جسدها، حواسها، كلّ ما اجتمع فيها اتّفق على كلمة واحدة: أنّها تحبّه، تحبّه لأنّها رأت فيه السّند و القوّة، الخير و الأنس، تريده لأنّه يراها كإنسان وُجد ليحقّق أحلامه، ليجعل لوجوده هدفًا، تتمنّاه لأنّه يراها الأهمّ و الأولى باهتمامه، قريبة هي منه في حال بعده، و إن ابتعد يحزن قلبها البريء شوقا لعودته، لا تتحمّل غيابه مستحيل.

في ذاك اليوم دعاها للجلوس في حديقة الحرم الجامعيّ، جنّة صغيرة فيها أشجار و ورود، نسيمها يحيي الرّوح، هدوؤها يريح النّفس و يعود بك لذكريات الصّبا الجميل، أيّام كنّا صغارا لا نأبه للوقت معفيّون من كلّ مسؤوليّة، نلعب و نجري طول الوقت حتّى الإعياء، فرحين مطمئنّين لا نخشى تأنيبا و لا توبيخا، أيّام يشتاق لها الكلّ ...

بعض العصافير تغرّد بين الفينة و الأخرى، تحيّي قاصدي هذا الملجأ، ملجأ كلّ من رام الاختلاء بنفسه و الانضمام للطّبيعة.

يجلسان، يتبادلان أطراف حديث هامشيّ كمقدّمة لما يأتي، هي لحظة تلخّص سنوات، لحظة انتظرتها "حياة" بشوق لا يوصف، بقي فقط أن تسمع تلك الكلمات تُنطق من شفتيْ حبيبها، كلمات الهوى و العشق، كلمات الحبّ الصّادق:

" يوم التخّرج، كان رائعا، سبحان الله كيف يمرّ الوقت بسرعة ...".

" نعم مُحقّ، أيّام لا تُنسى".

" لا تُنسى لأنّك جزء منها، أو بالأحرى لأنّك كلّ أيّامها و أحداثها".

تخجل و تتوتّر.

" أنا على وعدي، هل تسمعين منّي ما أودّ قوله لك ؟".

إنّها اللّحظة المنتظرة، أخيرا، يزيد ارتباكها و توتّرها، دقّات قلبها تتسارع، ترتعش من اختلاط الأحاسيس و الرّغبة في إنهاء سنوات انتظار طالت و امتدّت كأنّها قرون:

" بالطّبع ... تفضّل".

سيصرّح، أخيرا سيصرّح، لكن، لا يبدو عليه القلق، هذا ما لاحظته عليه حينما استرقت منه نظرة سريعة، بدا هادئا و كأنّ الأمر غير مهمّ، ربّما هي طبيعة الفتيات، عواطفهنّ أسبق للظّهور من الشّباب، ينظر في وجهها، يتأمّله، و بعد لحظة يقول:

" أنا معجب بل يا "حياة"، معجب بك منذ أن وصلتُ إلى هاته المدينة، إعجاب طفل، إعجاب مراهق، إعجاب شاب رأى فيك حياته الباقية، أودّ و بكلّ ما أحمله بين ثناياي من مشاعر و أحاسيس، أودّ أن أكون معك إلى الأبد، شريكة حياتي، زوجةً لي، بكلّ بساطة ... أريدك".

يختلط الواقع بالخيال و تموج الدّنيا بأنغامها الصّاخبة الهادئة، تحمل "حياة" إلى عالم السّعادة الكبرى، عالم يفكّكها و يذيبها بنار المشاعر الملتهبة، لتجد نفسها في قالب قلبه النّابض ... تذرف دموع الفرح و تقول بصوت مرتعش:

" أنا أيضا".

تعترف له بحبّها، لكن لم تستطع قول المزيد، عجز لسانها عن التّعبير بأكثر ممّا جادت به.

يقف "صابر" بجانبها و ينظر إليها بتمعّن، تتغيّر ملامحه فجأة من الفرح إلى الحزن، وجهه نور وجهه يختفي فبدا مظلما كقطعة من ليل ازرقّ من اسوداده، تلاحظ الفتاة هذا التغيّر فتسأله قلقة:

" ما بك ؟".

هو يحاول إخفاء حزنه و اكتئابه فيدير وجهه للجهة المعاكسة ...

" لا شيء".

تقف قبالته فيشيح بنظره عنها، تضع عينيها في عينيه و تقول:

" و كأنّني لا أعرفك، من الواضح أنّك تخفي عنّي شيئا، ما هو ؟".

حرام أن يخدع ملاكًا كـ"حياة"، محال أن يترك أسئلة دون جواب من إنسان وثق فيه ...

غير أنّ المصاب أعظم، لا يعلمه إلاّ هو ...

" بالفعل أحبّك، لكن في الواقع، لا يمكنني أن أشاطرك حياتي، آسف".

يشخص بصرها و تجمد في مكانها، ما الذي يحدث له ؟ ما الذي يقوله الآن بعدما قاله ؟ تشعر ببرودة تسري في كامل جسدها الصّغير ...

" لم أفهمك ... صدقًا أربكتني ... كيف هذا لا يمكنك مشاطرتي حياتك ؟ لمَ ؟".

يغمض عينيه ثمّ يقول:

" تستحقّين من هو أفضل منّي، أنا لا يمكنني إسعادك كما تتوقّعين، سامحيني".

تتوتّر أكثر و تغضب:

" لكنّني اخترتك أنت، و يمكنك إسعادي لأنّك أريدك و فقط، قلت توًّا أنّك تريدني شريكة حياتك ... زوجةً لك ... أبهاته السّرعة نسيت ؟ أو تناسيت ؟ ".

" قلت لك لا يمكن ...".

قالها هاته المرّة بجفاء و استياء، لكنّه يكذب، لا يزال يكذب ...

" تخفي أمرًا لا تريد كشفه، و أنا التي حسبتك توأم روحي و قلب قلبي، لم لا تصارحني يا "صابر"، أرجوك قل لي ماذا يحدث ؟".

توسّلت إليه و هي تبكي دون فائدة، يصرخ في وجهها لتتوقّف:

" لا أستطيع ... لا يمكن'.

لم تتمالك أعصابها، الغضب، الحزن، القهر ... كلّ ذلك مرذة واحدة، كفيضان جارف يأخذها للمجهول، أحسّت بالضّعف و الهوان، ربّما خُدعت من طرف الإنسان الذي وثقت به لسنوات دون ان تسأل نفسها من يكون حقًّا ...

رفعت يدها و صفعته صفعةً قويّة طارت لها العصافير و ارتدّ صوتها في الأرجاء، تنظر فيه و هي تبكي بكاء الأطفال:

" كلّ تلك اللّحظات، و كلّ تلك السّنوات و لا تثق فيّ ؟ كلّ ما مرّ سراب لعين".

تحمل حقيبتها و تترك "صابرا" كفّه على خدّه، تجري مبتعدة عنه عازمة أن لا تراه للأبد، ينظر إليها من بعيد حزينا مهموما و يهمس قائلا:

" هكذا أفضل ...".

هكذا أفضل ... ماذا قصد ؟ أكانت مجرّد لعبة بالنّسبة له ؟ تمضية وقت ؟

لا يهمّ هذا الآن، فقد عادت المسكينة إلى بيتها تجرّ خطواتها جرًّا، يشرب الحزن منها الجمال، تشقّ الدّموع وجنتيها كشلاّل، تحمرّ عيناها و تخرّ قواها، ينتابها تعب مفاجئ، لا تسمع و لا تحسّ بشيء من حولها، صفير، صفير لا ينتهي كطريق في صحراء يشقّ الرّمال إلى اللاشيء، لا يوصل لهدف و لا أمل في نهايته، عالم خالٍ من الحياة ...

لم تكن خالتها في البيت، تنزع حذاءها و تذهب لغرفتها مباشرة، ربّما هي بداية سبات آخر، عزلة شبه أبديّة، ترتمي على سريرها و تكمل ما كان في مقلتيها من دموع تعتصرها بصعوبة من عينين انكمشتا و تعبتا من البكاء، تبكي حتّى ينقطع النّفس فتلتقطه بشقّ الأنفس، ثمّ تعود لنفس السيّرة إلى أن اهتدت للبحث عن علبة سجائر أخفتها منذ مدّة،

وجدتها سريعًا، تأخذ سيجارة بيدها المرتعشة، تريد إشعالها، في الأخير ترميها، لا تملك حتّى القوّة لتفجُر، أنهكها كلّ شيء، أتعبتها الحياة بما فيه الكفاية ...

تسند ظهرها على الجدار، محاولة فهم ما حدث، و كأنّه كابوس، لم تصدّق أنّ كلّ ما سبق وقع حقيقة، و أنّها انفصلت للتوّ عن أعزّ ما بقي لها في هاته الدّنيا ...

بعد نصف ساعة يرنّ هاتفها المحمول ...

لم تردّ ...

يرنّ مرّة ثانية ... ثالثة و رابعة ...

ترفعه بصعوبة دون رؤية من المتّصل:

" من ؟".

" أنا "أسماء" ماذا يحدث لك ؟ لماذا لا تردّين على مكالماتي ؟؟؟".

بصوت متثاقل تعب:

" آسفة ... ماذا تريدين يا "أسماء" فأنا مشغولة الآن ...".

" "صابر" ... ألستِ معه ؟".

تنتفض حين سماعها اسمه:

" لا ... لماذا ؟".

" نقلوه إلى المستشفى الآن و هو في حالة خطيرة على حدّ قول "إسحاق" زميله في القسم".

تنهض حياة مرعوبة مرتبكة، و بصوت متقطّع غير مفهوم تسأل صديقتها:

ما الذي حصل له ؟؟؟ حادث مرور ؟؟؟".

" لا أدري، قال لي فقط أنّه في المستشفى المركزيّ و في العناية المركّزة، لا أظنّهم يقبلون الزّيارات و لو من أفراد العائلة، كلّمتك لأنّكما مقرّبان و ظننت ...".

لم تكمل سماع بقيّة الحديث، قطعت الاتصال و هبّت من مكانها متّجهة نحو الباب، لبست حذاءها، استقلّت سيّارة أجرة و مباشرة نحو المستشفى ...

رغم حزنها و غضبها منه ذهبت لتفقّد حاله، هناك دافع أقوى غلبها على عنادها، تلاشت الأضغان و تركت مكانها بسرعة للمشاعر الصّادقة، الأحاسيس العميقة التي لا يمكن أن تنمحي هكذا في لحظة، و التي لا تُنسى بمجرّد غفلة عقل أو سوء فهم ...

و هي في السيّارة ترى صورته بين عينيها بوضوح، لم و لن تستطيع نسيانه، لم و لن تستطيع كرهه و عتابه ما دام لم يجهر برغبته الصّادقة في الانفصال عنها ...

تصل إلى المستشفى، تجري في رواق العناية المركّزة و تسأل عن "صابر" ...

" أين "صابر" ؟ أين أخذتموه ؟ أين هو الآن قولوا لي".

تصرخ و لا تتوقّف، تكاد تجنّ ...

هي أمام باب غرفة مغلقة، يحول بينها و بين الباب طبيب مشرف، لا بدّ و انّه هنا، بالتّأكيد هو هنا ...

" أين "صابر" ؟ هو هنا ؟ ما الذي حصل له ؟".

تتدفّق الدّموع حارة تكوي جلدها تاركة آثار الأسى على وجنتيها بلون أحمر بارز، تمسك الطّبيب من ذراعيه:

" ما به دكتور ؟".

يسألها الطّبيب:

" هل أنت من العائلة ؟".

" أنا كلّ عائلته".

يلاحظ الطّبيب حجم اليأس في عينيها، لا يزيد كربًا آخر على كرب، يطأطئ رأسه دون كلام، يزيد خوفها لحظتها ...

" ماذا يحدث ؟ ما به ؟".

ينزع الطّبيب نظّاراته و يحاول تهدئة الفتاة، ثمّ يقول:

" الشّاب المدعوّ "صابر كريم" يعاني منذ صغره من تشوّه خَلقيّ صغير في البطين الأيمن ذو المخرجين، مشكل في قلبه أقصد، ساء الوضع كثيرا بعد مرور السّنوات و دون متابعة دائمة لطبيب مختصّ، اليوم الوضع صعب و حسّاس، الحلّ الوحيد كان عملية جراحيّة تعدّل هذا التشوّه في صغره، في الشّهور الأولى بعد الولادة، الآن تفاقم الوضع للأسف، سيبقى هنا ريثما تستقرّ حالته و ...".

مع كلّ كلمة ينطق بها الطّبيب تفقد شيئا من وجودها، لم تصدّق ما سمعته، لم تستطع تصديقه، مرض في القلب و أخفة ذلك عن الكلّ ؟؟؟ لماذا ؟؟؟

تتذكّر ...

نعم تتذكّر ...

تتذكّر يوم الإعلان عن فوزهما بشهادة الباكالوريا، يوم قدّمت له الكعك، كان ممسكًا بصدره، كان يتألّم، يعاني في صمت دون أن يشتكي ...

لم يكمل الطّبيب شرحه حتّى دفعته بقوّة و كاد يسقط، تنفلت من بين أيادي ممرّضتين رافقتا الطّبيب في حالة التّشخيص، تقتحم غرفة الإنعاش، تراه هناك، مستلقيًا على سرير و عليه غطاء أبيض ساتر، ناصع، و كأنّه ملاك لفّ نفسه بجناحيه، بجانبه تلك الآلة، تساعده على التقاط أنفاسه، تساعد قلبه الضّعيف على المقاومة ما شاء الله أن يعيش، تسرع إليه باكية، تحاول الممرّضتان منعها من الاقتراب لكنّ الطّبيب و بإشارة منه يوقفهما، يأمرهما بالخروج و ترك "حياة" مع "صابر"، يُغلق الباب أخيرا ...

تجثو على ركبتيها قرب السّرير، تحاول لمسه لكنّها تحجم، لا تستطيع يغلبها بكاء من احترق قلبه على حبيبه، يسمعها "صابر" الذي كان مستيقظا دون أن تعلم، يدير رأسه ببطء نحوها و بصوت خافت:

" أنتِ هنا ؟".

تجيبه:

"لا تقلق، أنا هنا –تفتعل ابتسامة لتطمئنه".

" ربّما أنت على دراية بما أخفيته عنك و عن جميع من أعرفهم لسنوات أليس كذلك ؟".

" لماذا ؟ لماذا تركت الأمر سرًّا ؟ أخشيت أن أرفضك بسبب مرضك يا "صابر" ؟ ذلك محال".

" لم أشأ أن يشفق عليّ أحد، خصوصا أنت".

" لم تترك لنا حتّى فرصة التّهوين عليك".

" أفضل، على الأقلّ عشت حياتي بشكل طبيعيّ، و لحظات حقيقيّة معك".

" لماذا تريد حرماني منك ؟".

لا يجيب ... يشعر بتعب مفاجئ ...

تنتفض "حياة" و تعتذر:

" آسفة أرهقتك، استرح من فضلك سأكون ...".

" أطلب منك فقط أن تسمعيني، و لا تقاطعيني من فضلك".

تمسح دموعها و تردّ:

" حاضر".

" لن تستطيعي العيش مع إنسان يعاني من حالة مرضيّة مستعصية كهاته، تستحقّين رجلا يقاسمك حياته و تقاسمينه، أن تعيشي مجرّد ساعات أو لحظات سعادة، ليست بحياة".

تدمع عيناها مرّة أخرى، لا تستطيع كبح الدّموع التي تتدافع باحثة عن الحريّة رغم المقاومة، يسمع لها الآن شهيق قويّ، تنخفض شدّة صوته بسرعة، تحال منعه عن الكلام دون فائدة:

" أشكرك على السّنوات التّي قاسمتني فيها مشاعرك النّبيلة، كنت صادقةً و كنتُ أنانيّا، أردت الاحتفاظ بك لنفسي رغم عجزي عن ذلك".

تنظر إليه نظرة المُشفق المُحبّ، تتمعّن هذا الوجه الشّاحب و هي ممتنّة لمن أنقذها من ظلمات هذا العالم و أخرجها إلى نور حقيقته، شاكرة لمن بعث فيها الأمل و الحياة بعد فقدان كلّ شيء.

" شكرا لك".

" عن ماذا ؟".

" عن إنقاذك لي يومها، لولاك لهلكت، لما تدخّلك حينها لما كنت هنا اليوم".

يضحك ضحكا خفيفا ثمّ يضيف:

" لن أقبلك شكرك حتّى تعديني بشيئ".

" ما هو ؟".

" سيعثر عليك رجل آخر، سيكون محظوظا لأنّه سيكوّن و إيّاك العائلة التي كنت تحلمين بها، ستنجبين الكثير من الأطفال، ذكورا و إناثًا، و إن أطال الله في عمرك ستكبرين و تهرمين لدرجة أنّك لن تتعرفّي على نفسك ...".

تضحك "نجاة" أخيرا، يبتسم بصعوبة، يرتاح لبرهة ثمّ يكمل:

" سترين أحفادك يلعبون حولك و أنت سعيدة و قد بلغتِ من العمر عِتيّا، أليس كذلك ؟".

تتمالك نفسها و تردّ:

" نعم ...".

أتعبه الكلام و أرهقته المعاناة، غير أنّه مُلحّ عنيد:

" عِديني بذلك إذن".

تبكي بحرقة و ألم ...

" عِديني".

في لحظة صمت و بصوت خافت يُسمع:

" أعدك".

يبتسم، تذرف عيناه دموع غلق كتاب الحياة، تراه فيشتدّ بكاؤها ...

" حاولت إخفاءها لكن كُشف أمري ...".

" و من قال أنّ الرّجال لا يبكون ؟".

يردّ بابتسامة عريضة:

" بلى يبكون ... يبكون فراق قلوبهم و أرواحهم ... فراق أعزّ ما يملكون".

لحظات يتبادل فيها المسافران نظرات الهيام و عبرات الهوى، لحظات لا تقدّر بثمن.

" أتركك الآن يا "حياة" لهاته "الحياة"، لا تخذلي أهلك و كوني كما عهدتك دوما: بيضاء صافيةً كالثّلج ".

توقّفت عن البكاء فجأة في الوقت الذي توقّف فيه عن الكلام، هذا الصّمت الذي كسره صوت الآلة معلنة رحيل "صابر" ...

تصرخ "حياة" و تبكي، تستنجد بالأطبّاء الذين دخلوا الغرفة مسرعين علّهم يعيدونه، لربّما يبقونه أكثر، يوم آخر، ساعة أو حتّى دقيقة، غير أنّ القدر رفض، أبى إلاّ أن يجاور الفتى ربّه في تلك اللّحظة،

حزن، أسى و ضياع لأيّام...

ذهب من أحيا فيها معنى اسمها ...

و ترك على عاتقها مسؤوليّة الوفاء بالوعد ...

وعد الحياة ...

أن تعيش و تثق بمن يستحقّ ...

أن تكمل سبيلها إلى غاية الهدف المنشود ...

أحقّا ستفي بوعدها ؟

ماذا ستختار ؟

أن تعيش في ماضيها و تموت فيه ؟

أم أن تتركه لتحيا من جديد ؟

الزّمن كفيل بالجواب الشّافي ... الكامل الوافي.

"لقاء"

الجزائر العاصمة، الجزائر 2021

يوم ماطر من أيّام شهر فيفري، لم ترحم الطّبيعة ساكنيها، فالبرد شديد يقسو على الكبير و الصّغير، القادر و العاجز، لا يفرّق بعدالته بين بني البشر، فيعطي لكّل حقّه بسخاء، فما على الجميع إلاّ بقمصان الصّوف و المعاطف.

تشتدّ الأمطار فتنزل سواقيًا من سماء لبّدتها غيوم رماديّة و سوداء، يزأر الرّعد بعد برق لا يطيل بقاءه، فصل الشّتاء في أبهى حلله يستعرض نفسه مفتخرا، يكشف أوراقه فلا شيء يخسره.

في أحد المواقف وسط العاصمة ينتظر أحدهم قدوم الحافلة ليلتحق بعمله، جالس وحده، لا أحد حوله، لا في الموقف، لا في الطّريق و لا حتّى مجرّد خيالات تترنّح ينخدع بها و يقول "يوجد أحياء غيري في هاته البقعة الخالية على عروشها"، لكن لا ... لا أحد غير ستار الأمطار هذا و صوته المدوّي حين يضرب الأرض.

على حين غفلة منه ينظمّ إليه أحد "الهاربين"، يغلق مظلّته سريعا و يجلس، كان مبلّلاً تماما رغم مظلّته التي بدت أنّها حمته، لكن لا، يدير رأسه ليرى المعجزة، ليرى من هذا الذي رافقه في رحلة الخلاص من الفراغ القاتل، و إذا بها ... امرأة.

بقي ينظر في هاته المرأة و قد أخذه سهو الإمعان ... جلست على استحياء في المقعد و بالذّات في زاويته، حتّى لا تقترب من الغريب هذا الذي لا ينفكّ يقلّب بصره فيها دون توقّف، في الأخير استيقظ من غفلته و غضّ بصره سريعًا و كأنّه يستسمحها عمّا بدر منه، هي لا ترفع بصرها نحوه، بقيت مركّزة على الأرض دون حراك.

لا يدري ما حلّ به، ليس من العادة أن يقلّ أدبه و يحرج غيره، فقرّر أن يعتذر بالطّريقة الأمثل دون أن يرفع بصره إليها:

" أعتذر".

تراه مطأطئ الرّأس خجلا منها:

" عفوًا ؟".

" أعتذر لأنّي أحرجتك، ما كان عليّ أن أنظر في امرأة غريبة كما فعلت".

غريب أمر هذا الرّجل، ما كان عليه أن يقدّم هذا الاعتذار، يغضّ بصره و كفى.

" لا بأس".

بقيَ كلّ في جهته لمدّة، لا صوت يعلو صوت هطول الأمطار، تتخلّلها نحنحة متعمّدة من الرّجل، و صوت عصر و نفض الحجاب منها، و الحافلة اللّعينة لم تصل بعد لترفع الحرج و يذهب كلّ بعيدا عن الآخر ...

عشر دقائق ... و لا زالا جالسين ...

عشرون دقيقة ... لم تصل بعد ...

نصف ساعة ... لا طفح الكيل ...

" ما الذي أخّر هاته الحافلة ؟ أكلّ هذا بسبب الأمطار ؟؟؟ نصف ساعة كاملة ؟؟؟".

لم يستطع السّكوت أكثر، كاد ينفجر، و يا للمفاجأة ردّت عليه:

" حال النّقل، حال البلاد، و حال النّاس كحال هذا الجوّ الماطر الحزين، بارد لا يأبه، يقسو علينا دون شفقة، فما بالنا نصبر و للصّبر حدود ؟".

لم يفهم جيّدًا ما قالته، شعور غريب، و كأنّها مستاءة، ناقمة، كلام بألغاز ...

" ما قلتِه ليس بسبب تأخّر الحافلة".

تصمت ... لا تضيف كلمة ...

" أتفهّمك، مشاكل الحياة تؤثّر فينا فتجعلنا أناسًا آخرين".

لا تجيبه، تبقى صامتة، يرفع رأسه و ينظر فيها، هي تريد الكلام لكن لا تستطيع، تريد إفراغ جعبتها بالتّأكيد...

كانت امرأة على محيّاها الخلق و الأدب، زيّنها الحجاب بالسّتر و العفّة، تجذبك رغمًا عنك ...

" نحن نتكلّم فقط ريثما تأتي الحافلة، إن كان الأمر يحرجك فأنا آسف".

ترى فيه ثمّ:

" لا تقلق أخي، حصل خير".

" مشكورة".

يعود صمتهما ليترك الطّبيعة تعبّر، أمر منطقيّ أن لا تتكلّم مع غريب، لكن ما قالته قبلا شدّ انتباهه، ما الذي أرادته بالضّبط ؟ ما الذي عنته ؟

صامتة هي كصنم، ألأنّها أنثى و تخجل ؟ أم لأنّها لا تريد الكلام فحسب ؟

ربّما للأمرين ...

صمت بدوره هنيهة، غير أنّ فضوله لمعرفة المزيد و رغبته في الردّ على كلامها لم يبقه على تلك الحال لمدّة أطول:

" حال النّقل كما قُلتِ، سيّئة بالفعل، حال البلاد من حال النّاس، لكن أن يكون حال النّاس كحال هذا الجوّ الماطر، كلّهم لا يأبهون، و كلّهم قساة، فلا أظنّ ".

ترى فيه صامتة، و حال نفسها يقول: "ما بك يا أخي ؟ ألهذه الدّرجة أزعجك ما قلت ؟".

" لن ألوم النّاس بعد اليوم، فقد قسوت على نفسي و على غيري و قمت بأمور ندمت عليها بالفعل، لو كلّ واحد فينا يرى عيوبه و أصلحها لما عابنا أحد".

مشدوهة ممّا قال تردّ:

" ماذا تقصد ؟".

" في الماضي خدعني أحدهم، قهرني و آذاني، مسّني في كرامتي، فانتقمت منه أشدّ انتقام، لا أخفيك ارتحت حينها، و شعرت بلذّة النّصر، لكن بعد ماذا ؟ بعد أن صرت أحقر و أسوأ منه، بذاتي لم أصدّق نفسي، لا أخفيكِ بعدها شعرت بالسّوء لأنّها ليست طبيعتي، لست أنا الذي يقوم بما قمت به، بعد تفكير أدركت كيف أنّ النّفس تتأرجح بسهولة بين الخير و الشّر، لو كلّ من آذانا انتقمنا منه كما اشتهينا لما بقي أحد على هاته البسيطة".

" فقرّرت أن تغفر و ترحم".

نظر فيها مطوّلا ثمّ قال:

" قرّرت أوّلا أن أتغيّر، أن أدرك تماما ماذا أفعل و الهدف ممّا أفعله، أو تعتقدين أنّ الغفران سهل ؟ صعب أن أخرج من سجن نفسي المنتقمة إلى ربوع الصّبر و التّسامح، لكن أفعلها في سبيل أن أرتاح من تأنيب الضّمير و أصوات من كانوا ضحايا أنانيّتي و جنوني".

" و أفلحت ؟".

" ليس بعد".

" لماذا ؟ لم تستطع ؟".

" كلاّ ... لأنّ ذلك يستلزم حياةً بكاملها".

تجمد في مكانها، تبقى محدّقةً فيه، قد قال كلمة هزّتها بالفعل ...

" حياةً بكاملها ؟ يعني لا زلت تتغيّر ؟ و لن تتوقّف عن ذلك ؟".

" إن توقّفت فلن أتجاوز عقبات الماضي، و سأظلّ سجينه و خادمه، لا حاضر و لا مستقبل، لا حياة و لا شيء".

تطأطئ رأسها و تهمس مع نفسها:

" لازلتُ سجينة الماضي ... سجينة ذكرى أليمة لا تفارقني".

" ما أريده هو أن أقلب الصّفحة و أكمل، رويدا رويدا أصحّح أخطائي معتمدا على من أثق بهم، لن أستطيع أن أعيش و أسعد وحدي، مستحيل، لهذا لُمتك حينما قلتِ أنّ ...".

تقاطعه و الدّموع في عينيها، تعترف بصوت يرتعش:

" فقدت أعزّ إنسان ... لا زلت أعيش بذكراه منذ ستّ سنوات إلى الآن، لا أريد أن أنساه و قد سكن الماضي، فأتركه إن قلبت الصّفحة و كتبت حياتي في بياض الحاضر و المستقبل ".

لم تستطع مقاومة الدّموع فتبكي أمامه بحرقة ...

" ستقلبينها لأنّه لا خيار لك، لا يمكنك غير ذلك".

يا لها من صدمة، تنسى البكاء و ترى فيه، كم كان ردّه عنيفا ...

" لأنّك لا تملكين القدرة على إرجاعه، و لا العودة في الزّمن، مجبرة أنت على قلب الصّفحة، الاستسلام للأحزان دليل الضّعف و الهوان، إلقاء اللّوم على الآخرين لا يفيد في شيء، ألأنّك فقدته ستكون تبريراتك أمام النّاس مُقنعة ؟ الكلّ يرومون خسارتك و عذابك ؟ أيعني أنّ اللُّؤم صفة الجميع ؟".

و كأنّها الصّفعة ... تتركها دون كلام ...

نظرة حادّة تغيّر محيّاه ...

" في الوقت الذي وقف فيه "اللّئام" متصدّين لعواصف الدّنيا و أهوالها، بذلوا في ذلك كلّ عزيز، عليك أن تسألي نفسك: ماذا فعلتِ أنت ؟".

سمِعت هاته الكلمات من قبل، حفظتها روحها سنوات، لا زال وقعها شديدا على نفسها المنهارة منذ ذلك اليوم، تأثيرها عبَر الزّمن و سكن حاضرها اللّحظة، ترتعش شفتاها و تحملق فيه ضائعة، تنطق اسمه دون وعي منها:

" "صابر" ".

يدرك الرّجل أنّ "صابرًا" هذا هو الذّكرى الذي سجنتها و لم تفكّ قيدها، "صابر" هذا الذي ذهب و لم يعد ترك إرثًا من الآلام و الأحزان تحمّله هذا القلب الضّعيف، ستّ سنوات كما قالت ...

أُحرج ... نعم أُحرج لأنّه آذاها، آلمها بإحياء ماضيها معه، تكلّم معها و كأنّه يعرفها منذ زمن، و كأنّه يحسّ فعلا بما تحسّه من عذاب، نسي للحظة أنّه يخاطب غريبة، لا يحقّ له التدخّل في شؤونها، يهدأ بسرعة و يتردّد في الكلام ...

" آسف مجدّدا ... في العادة أنا هكذا، مندفع تغلبني العواطف، ما كان لي أن أتدخّل في شؤونك و لا أن أكلّمك أصلا، فلا أحد فينا يعرف الآخر و لا يحقّ لكلينا الحديث في أمور تخصّ الثّاني دون ...".

تقاطعه:

" وعدته ...".

" نعم ؟".

" وعدته أن أتغيّر، و لم أوفي بوعدي".

الأمر صعب، ليس بالسّهولة التي كان يعتقدها، فبين سطور تلك الحكاية صفحات كُتب ترويها روح معذّبة، ليست مجرّد محاولة نسيان، إنّه أخدود عميق، عميق جدّا ...

ليس بوسعه شيء، الأمر كلّه يعود إليها ...

الخيار خيارها وحدها ...

يغمض عينيه و يقف، يلبس معطفه الذي تركه بجانبه ليجفّ، يأخذ مطّاريته و يهمّ بتركها في الموقف، تستغرب منه ذلك:

" أنت ذاهب ؟ ألن تنتظر الحافلة ؟".

" كلاّ لن أنتظرها، سأكمل طريقي ماشيا إلى أن أصل للمؤسّسة، بعض التّأخير لن يؤثّر فأنا مديرها".

" تمشي في هاته الأمطار ؟ ألن تنتظر توقّفها على الأقلّ ؟ ستتبلّل".

" لديّ مطّاريّة، كما أنّي انتظرت بما فيه الكفاية ... لولا سيّارتي التي تعطّلت آخر لحظة لكنت في مكتبي الآن".

هو عازم ... سيذهب ... سيتركها دون إجابات ...

تشعر بـ ... الحاجة ... تريده أن يبقى، بضع دقائق أخرى ... هو يقوم بأوّل خطوة خارج الموقف ذاك و إذا بها تنتفض، تقفز و تجذبه من طرف المعطف، يجمد في مكانه، يستدير فتشيح النّظر عنه، يبقى واقفا ينتظر ماذا تقوله، و بعد أن هدأت الأنفس قليلا:

" هاته الدّنيا ليست ورديّة كما يقولون، ليست خضراء بديعة ...".

تقولها بنبرة حزن واضحة ...

" ليست بيضاء بريئة، و ليست سوداء مقيتة".

يقولها بدوره و قد بان عليه التأثّر، تستشفّ ذلك من وجهه الذي فضحه:

" معك حقّ، ليست سعادة دائمة، و لا حزنا قائما، رماديّة هي، مزيج الأبيض و الأسود...".

" إن كان لها لون ... سيكون الرّماديّ".

في لحظة سحريّة يبتسمان لبعضهما، أخيرا تتغيّر ملامح المرأة، و أخيرا يهدأ الرّجل ...

و كأنّ السّكينة عانقتهما وسط فوضى الطّبيعة الصّارخة، و كأنّهما كانا بحاجة إلى هاته اللّحظة أن تكون ...

شعلة صغيرة تكاد تنطفئ، لكنّها تقاوم لتبقى في الوجود ...

ربّما هو مجرّد انجذاب، ربّما بداية إعجاب، غير أنّه أمل يولد بين ظهرانيّ أمنية واحدة:

العودة إلى الحياة ...

" لست مرتبطًا، لم أجد المفتاح، مفتاح باب أسرار قلبي الذي هام باطلا، ظلّ سبيله فتفرّعت به طرقات الشكّ و أبعدته عن اليقين، أريد أن أستقرّ و يهنأ قلبي بمن يهنأ لها العيش معي، مللت من التّفكير و التّخطيط، أُشبعت من تجارب هاته الحياة و علمت أنّ روحي التي أنهكها البحث لا و لن تكمل ما قُدّر لها أن تعيش إلاّ بمرافق يعينها على البقاء ... ".

تبقى صامتة تسمع له ... منصتة لكلامه، يعبّر بوضوح عمّا يريده، لا يلتفّ، لا يضيّع وقتًا في وصف خياليّ أو مبالغة جماليّة، ببساطة يريد شريكة حياة ...

" لم أذق بعد الحبّ، و يقال أنّه بعد الزّواج، لكن للحبّ مقدّمات، لمحات و إشارات، ينادي كائنين ليجتمعا في حضرته، ليعترفا بجرمهما علنا ... الجرم العظيم الذي لا يُغتفر".

تتساءل و هي تنظر فيه، فقد زال الخوف و نسيت أنّه في الأصل غريب:

" و ما هو هذا الجرم ؟"

يبتسم و يردّ:

" جرم أنّنا سجنّا آلام الماضي في علبة مرميّة في أقصى أقاصي ذاكرتنا، دون أن نُحاسب أو نُلام، فقط الحاضر يدعونا، و المستقبل من بعيد ينادينا".

تُعجب بكلامه، يلين قلبها لما تسمع، فتلك الكلمات أثّرت بصدق عليها و تركتها صامتة، ليس لأنّها لا تريد أو لا تستطيع له ردًّا، بل لأنّها تنتظر المزيد، تريد أن تلقي بنفسها في بحر معانيها و تعيشها بالفعل، تنتظر إجبارها على الخضوع و هي مستسلمة ...

تكبر الشّعلة في داخلها، تترجمها ابتسامة عذريّة و لا أجمل.

" ما رأيك ؟ أمستعدّة أنتِ لترك الماضي السّحيق هناك بعيدا عن الحاضر و المستقبل ؟ أتودّين أن تقاسمي إنسانًا بحث عن الطّمأنينة و الاستقرار و خصوصا، بحث عن صدق المشاعر فلم يجدها ؟".

" كيف علمت أنّي غير مرتبطة ؟".

" لا خاتم، لا ارتباط، لا قلب يقاسم قلبك و لا روح تناجي روحك".

" الخاتم ليس بمعيار".

" لكنّ الأرواح الضّائعة تبحث عن مثيلاتها، و هذا معيار".

ربّما يكون هو، ربّما يكون طبيب روحها المفقودة، ربّما يجدها في أحد زوايا هذا الكون و يداويها، ربّما يكون "الحقيقة" التي تبحث عنها، حقيقة اسمها "سعادة".

تنظر فيه مطوّلا دون أن تفارق عينيه الجميلتين الذّابلتين، هو يتوتّر لكنّه لا يظهر ذلك، يحاول دائمًا أن يضبط نفسه و يكون سيّد الموقف، لكن كيف تقاوم براءة وجه رسمه الخالق بعناية ؟

" مزيدا من الوقت ...".

" لم أفهمكِ ...".

" مزيدًا من الوقت لأفكّر، أهذا ممكن ؟".

ترتسم على وجهه الوضّاح ابتسامة عريضة تتوقّف معها الأمطار مُستحيية أن تفسد اللّحظة بصخبها الذي ضاهى غزارتها.

هي بداية ...

لكلّ أمر بداية ...

لربّما هذا اللّقاء يكون ريشة الرّسم التي تمزج الأبيض بالأسود، الآمال و المعاناة، ربّما تتّحد هاته الرّيشة باللّونين فتجعلهما واحدا، تعطينا "الرّماديّ"، عنوان الحياة الحقيقيّة، الحياة التي لا تخلو من مشاكل و عقبات، لكن لا تنسانا من جميل منّتها و كثير عطائها.

" "سامي" معك، متشرّف بمعرفتك".

" "حياة" الشّرف لي".

كان أوّل لقاء، و لأنّ الحياة لا تأخذ فقط بل تعطي، أعطتهما فرصًا أخرى، فاتّفقا على أن يكون لهما مع الصّدق موعدًا يضربانه، صدق مع النّفس و الآخر، حيث يجد كلّ منهما الثّاني في كلامه، في أحاسيسه و مشاعره، في مواقفه، فيما يريد و ما لا يريد ...

أتمّ الله الخير فاتّفقا أن يكونا روحًا واحدة، قلب واحد ينبض، تزوّجا بعد مدّة قصيرة و اتّفقا أن يتركا العاصمة و يعيشا في مكان آخر، فكانت "وهران الفاتنة".

"وهران الباهية" التي شهدت بداية أخرى لحياتهما، احتضنتهما و بشّرتهما بشارة الخير، مدينة وهران كانت مهد طفلهما الأوّل ...

مهد قرّة عينهما "آدم".

" وتستمرّ الحياة"

وهران، الجزائر 2050

ثمانية و عشرون سنة، درست و افتككت منصبًا، عملت و اجتهدت، و اليوم جهّزت منزلي لأنتقل إليه أنا و زوجتي إن شاء الله، زفافنا الشّهر المقبل ...

" آمال"، اسم زوجتي، أعقد عليها آمالي في أن تكون سندي و مأواي، في أن تقاسمني حلو و مرّ هاته الدّنيا، بالطّبع لا أملك تجربة في الحياة الزّوجيّة، و نصائح أمّي، أخواتي و أحبابي لا تغنيني شيئا عن الحقيقة، لذا أفضّل تعلّم العيش مع من أحبّ تماما كما هي تتعلّم، و أكون كما منت دائما: عادلا في قراراتي فلا إفراط لا تفريط ...

أكرمني الرّحمن بعائلة متماسكة الأصول و الفروع، الحمد لله، كذلك لا ينقصنا شيء من النّاحية الماديّة، غير أنّي رفضت مساعدة أهلي و اعتمدت فقط على نفسي بعد توفيق الله في تجهيز كلّ شيء ...

قال أبي مرّة: " الرّجل بنفسه يكون، إن اعتمد كلّ مرّة على غيره صار امرأة".

كلامه هذا رسخ في ذهني و بات عقيدة في نفسي، أعمل جاهدا لكي لا أحتاج لأحد، و إن احتجت صبرت، و إلاّ طلبت العون من أقرب الأقربين، نادرًا ما فعلتها، أقصد طلب العون الماديّ و ليس العون بشكل عام، فمن منّا لا يحتاج إلى الآخر ؟

كان يقول أيضا: " إيّاك و الغرق في وحل الانتقام، فلن تجد نفسك بعدها أبدا".

صراحة إلى الآن لم أفهم ما كان يقصده من أنّني إن انتقمت لنفسي فلن أجدها بعد ذلك، ربّما سأضيع و أضلّ طريقي و أنا منشغل بالانتقام ممّن آذوني و أساؤوا إليّ ؟ أو ذلك سيحوّلني إلى إنسان آخر ؟

لم أجرّب الانتقام ... لم أردّ الصّاع لأحد أخطأ في حقّي، و لن أفعل، فلست ممن يحقد على من زلّ و طلب السّماح، بل لست ممّن ينتظر توبة المخطئ و رجاءه ليراه راكعا أمامه فينتشي بذاك المنظر، حتّى و لو لم يكن ذلك لا أبالي ...

لي أمور أخرى أهتمّ بها ... أمّي ... أخواتي الثّلاث ... و حياتي الجديدة ...

لكنّني مع ذلك أفتقده، رحل و تركنا مشتاقين له، سنة مرّت على وفاته بمرض عضال ألزمه الفراش ...

أتذكّر جيّدا ... نعم ... في آخر أيّامه كان يقول:

" لا تجعلوا من الموت ذكرى دائمة تعيش معكم، فبعد موتي لي حياة، و لكم حياتكم التي تعيشونها، للفراق لوعة، و للّوعة زمن، و إن كان الحزن رفيق الحياة فالأحرى أن لا نعيشها".

رحمه الله، حفظت كلامه نعم، لأنّ ما قاله درر و جواهر ...

لم أكن قريبًا منه كما قد يتخيّله البعض، علاقتنا كانت تقليديّة إن استطعنا القول، لم تكن عميقة فعلا، لكن معاملته كانت طيّبة، و اهتمامه بنا كان كبيرا، بنانا من الدّاخل، بنى أرواحنا على أساس الصّبر و التّماسك، على الحبّ و التّعاون، فلم تغرنا الأموال رغم ثرائنا، و لم يكن الجاه يومًا هدفنا، ربّانا على الاحترام، على الأخلاق و القيم ...

ربّانا في حضن الإنسانيّة ...

أمّي لا زالت حيّة، بارك الله في عمرها، لا تفتأ تذكر أبي و تثني عليه حتّى بعد رحيله، تقول:

" كان رجلا ذا كلمة، كان له الفضل في عودتي من الموت".

كذلك لم أفهمها، و لا زلت، لا أحد فهم ما قصدته، و إن سألناها تقول هذا بيني و بين أبيك سرّ لا ينبغي لكم معرفته ...

بالفعل أسرار كثيرة، أمور متعلّقة بماضيهما لم نعرفها بعد، ربّما لن نكشف سرّها أبدا، كانا قريبين من بعضهما، كثيرا، اليوم أراها حزينة في زاويتها قليلة الكلام نادرًا ما تبتسم ...

" ذهب نصفي يا ولدي، أعيش اليوم نصف إنسان، و الحمد لله على كلّ حال".

لم تغنها صحبة بناتها الثّلاث و صحبتي عن فقدانه شيئا، كانت و لا زالت مكانته خاصّة في قلبها المسنّ، وفاته أثّرت فيها، و رغم ذلك تبقى حامدة لله شاكرة لنعمة الحياة، نعمة أبنائها الذين هم حوليها، نعمة الرّزق و الصّحة، نعمة أنّها شهدت ميلاد كلّ منّا و نجاحه في حياته بطريقته ...

" أخطاء الماضي اتركوها في الماضي، أنتم اليوم تعيشون الحاضر، و قريبا المستقبل".

لا أفضل من هاته الكلمات لتعيش حياتك بكلّ احتمالاتها الممكنة، كلمات تحرّرك من الخوف و التردّد، تطلق جناحيك لتطير في سماء تطلّ على عالم تودّ اكتشافه بكلّ تفاصيله ...

أمّ تدعمك و تشجّعك، تنصحك من بعيد و لا تتدخّل في شؤونك، تجعلك رجلا بتركها معضلات الحياة تمتحن جلدك، فلا حلّ إلاّ بالاعتماد على إرادتك و قوّتك، تتعلّم حينها كيف تتفاداها، كيف تجد طريقك لتصل إلى هدفك المنشود ...

تلك هي أمّي ... فخري و اعتزازي ...

بعد شهر سأبني أسس عائلة جديدة رفقة شريكة العمر، هنا في هاته المدينة التي وُلدت و عشت فيها الحلو و المرّ، في "وهران الباهية"، أتمنّى أن أكون مسؤولا كأبي، مُحبًّا كأمّي و أكثر من ذلك بإذن الله.

أنا "آدم" ابن "سامي" رحمه الله و "حياة" الأم المعطاء.

خاتمة:

الرّماديّ، لون الرّتابة و الملل، لون الحزن و الكآبة، لون لا أهميّة له و لا تأثير، على نفس الإنسان ثقيل، هكذا يُعتبر في دين العامّة، غير أنّه غير، فهو ليس ككلّ الألوان، بل هو بالاهتمام جدير، و في دلالته دلالة الحياة بأكملها ...

في علم النّفس، اللّون الرّماديّ هو لون الحياديّة، لون نزيه لا ينحاز، كذلك هو لون الحلول العقلانيّة، لون الوسطيّة، فهو بين اثنين، الأبيض و الأسود، يعني استقرار دائم بين متعاكسين، كذلك هو لون السّيطرة، له تأثير نعم على عكس ما خُيّل للكثيرين، تأثيره ثابت دائم على كلّ الألوان الأخرى، يعبّر عن الهدوء، السّكينة، التحفّظ و السريّة ...

هذا هو الرّماديّ ...

أليس فلسفة بذاته ؟ أليس أفضل ما يمثّل الحياة ؟

في هاته الحياة يجب أن نعدل فلا ننحاز، أن لا نتأثّر و نُعمل عقولنا بحكمة، أن نكون وسطيّين، بين الشدّ و المدّ، وُسطاء للخير، ثابتين مستقرّين رغم كلّ الفوضى من حولنا و التي تزعزع الأمن و تهدّد الطّمأنينة، علينا أن نكون مسيطرين على أفعالنا و أقوالنا لنسيّر حاضرنا و مستقبلنا بما شاء الله أن يكون.

الرّمادي ... لون الحياة.

الرّمادي ... حكمة متروكة وجب استرجاعها.

الرّماديّ ... مفتاح الحاذق لحياة بسلام.

الرماديّ اعترافٌ و شبابيكٌ ... نساءُ و صعاليكُ

و الرماديُّ هو البحر الذي دَخّنَ حُلْمي زَبَدا

و الرماديُّ هو الشّعر الذي أجر جرحي بلدا

الرماديُّ هو البحرُ

هو الشّعرُ

هو الزهرُ

هو الطيرُ

هو الليلُ

هو الفجرُ

الرماديُّ هو السائرُ و القادمُ

و حلم الذي قَرَّره الشاعرُ و الحاكمُ

منذ اتّحدا !

من قصيدة "الرّماديّ"- محمود درويش-

النّهاية